زهير أبو سعد

عنوان الكتاب: فراغ
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام
تدقيق لغوي ومراجعة: منى سويد

الطبعة الأولى 2017 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم التسجيل: 7335 /2017
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

فراغ

زُهَير أبُو سَعد

إِهدَاء

إلَى الفَراغ

الذِي كسرنَا بِوُجودِه

إلَى المَنفى اليَتيم و المَهجَر الحزِين ..

إلَى أمّ العَوَاصِم ، و أيقُونَة المُوسيقَى فيينا خاصّة و الجُمْهورِيَّة النِّمسَاوية عَامِة ..

إلَى أبِي و أمّي و مَن لَه حقّ علَيَّ ..

سِيجَارة ..

بَعد نَهَارٍ غَارقٍ بِالنَومِ..

أنَا أُفَضِّلُ أَنْ تَعودَ إلى النَومِ يا صَدِيقي ..

إِنَها أكبَرُ الأُمنِياتِ ..

سِيجَارة ..

نَعَم سِيجَارة .. بَعدَ نَفَسٍ عَميقٍ مِنَ السُباتِ ..

ـ هَل تَنَاولتَ شَيئاً يا صَدِيقي !! ..

أيُ نَوعٍ مِنَ الأَطعِمَةِ .. أفطَرتَ أو تَغدَيتَ أو تَعشَيتَ !

ـ هَل هَذَا سُؤالُ شَخصٍ عَاقِلٍ !!

ـ إِنَني مُنذُ الساعَةِ التَاسِعَةِ صَباحاً و أنا خَارجَ نِطَاقِ الاستيقاظِ ، و لم أَتناول سِوى الأحلام ،

حَلِمتُ بِأشياء كَثِيرة ..

و لكن لا تَضحَك إذا أَخبَرتُكَ بِمَا كُنتُ أحلُمُ !! ..

ـ حَسناً .. بِمَاذا كُنتَ تَحلُمُ ؟

هَا هَا هَا هَا ..

ـ سَأُخبِرُكَ بَمَا كَان يَجولُ في نَومي .. كُنتُ أحلُمُ بِأَنَني كُنتُ نَائِمَاً ..

ـ حَسناً .. هَل هَذِهِ السِيجَارةُ قَدْ مُزِجَت بِأوراقٍ دَخيلَةٍ سِوى وَرَقِ التَبغِ !؟ ..

آسِف ..

لَقد نَسيتُ أن أُعَرِفَكُم على صَدِيقي ..

أنكُولا جِرجِس ، مِن الجَنوبِ ..

إِنَّهُ جَنُوبُ الفَراغِ الخَالي مِنَ المُستَقبَلِ ..

جنوب لُبنان يا خيي ..

أقولُها مِنْ جَوفِ قَلَمي ، و بِكُلِ جُرأَةِ حِبري :

لم يُنصف لُبنان سِوى صَوتٍ وَاحِدٍ ، و بَقِيتِ الأصواتُ ، فَإِنَّها أصوَاتُ قُطَّاعِ الطُرقِ ، و نُباحُ اللُصوصِ ، و جَعجَعةِ أولادِ الحَرامِ اللذَينَ سَلبوا مِن شَذى الأَرزِ عِطْرَهُ ، و سَحَبوا مِنَ البَحرِ مَدَّهُ و جَزرَهُ ..

يَتِيمَةٌ أنتِ يا شَجرةَ الأَرزِ..

و لو لا صَوتُ السَماءِ لجفَت عُروقُكِ ..
إِنَّهُ شَجَنُ أَروقَةِ القُّديسِ مَار شِربِل ..
و تَرانيمَ التأَمُلِ ما بَعدَ الظِلالِ ..
و نَفخَةُ الناي الاِنطِوائي المَدَى ..
و لولا أَجراسُ الكَلِماتِ و مَنْ طَووا أَرواحَهُم تَحتَ صَوامِعِها ، لقامَت قيامَةُ الوَطَنِ المُقَّسَمِ إلى دُويلاتٍ طائِفِيَةٍ و سياسيةٍ و ربِ لُبنان إنها لا تَخدِمُ لُبنان أكثَرَ مِما خَدَمَتِ المَصَالحَ الشَخصيةَ لِزُعماءٍ و لُصوصٍ و مُرتَزَقَةٍ ..
كَلِمَةٌ واحِدَةٌ أَحيَت بَحرَ لُبنان ..
صَوتٌ وَاحِدٌ أَقامَ أَعمِدَتَهُ المُتَهالِكَةُ ..
صَلاةٌ واحِدَةٌ ثَبَّتَتْ فَيَضَاناتِ الفَقرِ و المَجاعَةِ ..
لا تَقُل لُبنان لَيسَ لَهُ أحد ..
لُبنان أَحرُفٌ كَتَبها جُبران خَلِيل جُبران ..
لُبنان صَوتٌ أَحيَتهُ قِدِّيسَةُ الصَوتِ المَلائِكي فَيروز..

لُبنان صَلاةُ قِديسٍ لا زالَت تَرانيمُهُ تَتَعالى إلى الجَرحِ ، ذالِكَ النورُ الذي رَحَلَ بِزُهدِهِ سَيدُ الصَلَواتِ مَار شِربِل ..

إِنَّهُ وَطَنُ الفَراغِ ..

الفَراغُ مِنَ الصَوتِ و الكَلِمَةِ و الصَلاةِ ..

مَاتَ جُبران .. و رَحَلَ مَار شِربِل .. و هَرَبَت فَيروز ..

و لَكِن بَقيَ لُبنان ..

سَأَلتُ صَديقي الذِي جَعَلَ مِنْ لَيلِهِ نَهارًا و نَهارِهِ لَيلاً:

ـ شُو رأيك بِالوَطن ! ..

أَخَذَ نَفَسًا عَميقًا ،و تَرَكَ مَــكانَهُ زَفيرًا ، و نَظَرَ إِلىَ النافِذَةِ قَائِلاً :

ـ تَاخُد هَالوَطن و تَعطيني بَدالو جَاط تَبولة يَاخيي!!..

لنْ أُعَاتِبَهُ على إجابَتِهِ الساخِرَةِ ..

لِأَنَّ الفَراغَ هُوَ بَطَلُ قِصَتِنا ..

نَظَرَ إِلَيَّ تَارَةً أُخرى قَائِلاً :

ـ يا خَيي هالوَطَن مو لإلنا ..

هَذا الوَطَنُ بِأَوتادِهِ الفِكريَةِ العَريقَةِ ، لَمْ يَعُد يَصلُحُ لِلأَصواتِ الفَيروزيَةِ و لا لِلأَقوالِ الجُبرانيَةِ و لا لِلصلواتِ المارونيَةِ ..

إِنَّهُ وَطَنُ الخِطاباتِ الطائِفيَةِ المُلتَهِبَةِ المُحَرِضَةِ على القَتلِ،إِنَّهُ وَطَنُ الأَناشيدِ الإِرهابيَةِ المُحَفِزَةِ على الذَبحِ و السَلخِ ، إِنَّهُ وَطَنُ الصلواتِ السَوداءِ التي لا تَتَجَاوَزُ الحُلقُومَ ..

إِنَّهُ الوَطَنُ ..

الذي اِستَبدَلَهُ شُبّانُهُ بِطَبَقٍ مِنَ التَبولة ..

أنكُولا جِرجِس ..

تَخَّرَجَ مِنَ الجامِعَةِ اللُبنانيَةِ بِاختِصاصِ هَندَسَةِ اِتِصَالات ، بِدَرَجَةٍ عاليَةٍ جِداً،و لِأَنَ سَلَطَةَ التَبولة أغلى مِنَ الوَطن ، فإِنَّ صَديقُنا عَاطِلٌ عَنِ العَمَلِ

مُنذُ أكثَرَ مِن ثَلاثِ سَنواتٍ،أو مُنذُ تَخَرُجِهِ مِنَ الجَامِعَةِ ..

صَديقُنَا يَنحَدِرُ مِن سُلالَةٍ مارونيَةٍ عَرِيقَةٍ و نَزيهَةٍ،إنَّ هَذِهِ العائِلَةَ هي الفَصيلُ الوَحيدُ الذي نَجَى مِنَ الأَمراضِ الطائِفيَةِ و الأَحزابِ السياسيَةِ و الحَرَكاتِ العُنصُريَةِ ..

لَيسَ خَوفاً مِنَ المُغامَرَةِ .. كَلاَّ ..

بَل لِسَلامَةِ الفِطرَةِ الوَطَنيَةِ ، و حِنكَةٍ في التَفكيرِ ، و حِكمَةٍ في قِراءَةِ المُستَقبَلِ الذِي لا يُبَشِرُ بِخَيرٍ أبدًا ..

و لِأَنَّ هَذِهِ العائِلة أَخَذَت مَذهَبَ النأيِ بِالنَفسِ ، و اِعتِزالِ هَذِهِ الفُوضى اللاأَخلاقية و اللاإنسانية فَإِنّهُم لَيسَ لَهُم خُبزٌ و لا مِلحٌ عِندَ الدَولَةِ ، هَـكَذا هُوَ لُبنان جَميعُ قادَتِهِ القِديسين هم لُصوصٌ وحرامية وعُمَلاءٌ لِلخارِجِ ...

الكُلُ يُرِيدُ أَن يَسرِقَ ..

الكُلُ يُرِيدُ أَن يَملأَ جُيوبَهُ و أَرصِدَتَهُ و خَزائِنَهُ ..

مُنهَمِكونَ في حَصدِ الخَيراتِ ، و رُكوبِ أَمواجِ المَلَّذاتِ ..

بَلَدٌ يُطِلُ على بَحرٍ و تَحميهِ جِبالٌ راسياتٌ ..

لا يوجَدُ فيهِ لا كَهرباء و لا ماء ..

بَطالَةٌ و فَقرٌ و جُوعٌ و تَرَدي في كُلِّ مُقَوِماتِ الحَياةِ..

إِنَّهُ المَوتُ المُقَطَّرُ .. إِنَّهُ الوَطنُ الذي يَحتَضِر ..

العُملاءُ في كُلِ مَكَانٍ ، و الطَبَقَةُ المُتَوَسِطَةُ مَعدومَةٌ..

الطَبَقَةُ العُليا اللُصوصُ و الزُعَماءُ و مَن نَهَجَ نَهجَهُم مِن بَلطَجيَةٍ و مُطَّبِلين و مُزَّمِرين ..

و الطَبَقَةُ المَسحُوقَةُ مِنَ الشَعبِ التي لَمْ تَتَلوث بِأَمواجِ و أعَاصيرِ التَّياراتِ التي اِستَقرَت في شُقُوقِ الوَطَنِ الجَريحِ ..

أنكُولا جِرجِس ..

يا رَائِحَةِ الأَرزِ الكَئيبِ ..

ـ مَاذا تُرِيدُ أَن تُخبِرَني يا صَدِيقي أنكُولا ؟ ..

لا زَالَت جُعودَةُ النَومِ مُستَحكِمَةٌ في مَلامِحِ صاحِبِنا ، و لَكِنَّ السِيجَارَةَ وَحدَها المُستَيقِظُ في سِينَاريو بِدايَةِ لَيلَةٍ جَديدَةٍ ، و أُمسيَةٌ حَزينَةٌ ..

ثَلاثُ سَنواتٍ و أَنا على قَيدِ الأُمسياتِ ..

أُكسجين لُبنان النَقي يَظهَرُ في المَساءِ ..

في الليل يَنامُ اللُصوصُ .. تَصمُتُ أَفواهُ العُملاءِ ..

لِنَبقى نَحنُ أَبناءُ الشَعبِ نُحرِسُ الوَطَنَ بعيونِ الأَرزِ..

و بِدُموعِ الكُحلِ التي تَقِفُ على آفاقِهِ نَذُّبُ عنهُ عَذَابَهُ ..

مِسكينٌ أَنتَ أَيُّها الوَطَنُ ..

و جُرحُــكَ يُوجِــعُ شِغافَ قُلوبِنا ..

أنكُولا جِرجِس ..

قَامَ صَدِيقُنا إِلىَ المِغسَلَةِ ، جَمعَ الماءَ بِكّفَيهِ ، و لَطمَهَا على وَجهِهِ ، و راحَ يُجَفِفُ الماءَ ، كَما

تُجَفِفُ فَيروز أسماعنا مِن وَحلِ المساءِ في كُلِ صَباحٍ ..

إِنَّ الفَراغَ هوَ بِدايَةٌ لِكُلِ إِثَارَةٍ قَدْ تَشي بِهِ ..

لَمْ يُزاول أنكولا جِرجِس مِهنَةَ الهَندَسَةِ ..

إِنَّهُ سَيدُ الليلِ .. و حَارِسُ النُجومِ .. و آخِرُ مَن انصَفَ غيابَ الشَمسِ ..

ثَلاثونَ عَاماً لِلوصُولِ إِلىَ بُغيَتِهِ،فَكانَ الهَدفُ خُدعَةً ، و الطُموحُ كِذبَةٌ،و الطَريقُ مَشُوبٌ بِالدَسائِسِ ، كُلُ هَذِهِ السِنين كُلُ هذا الوَقتِ الذي عَبَرَهُ، أَذابَ لُبَّهُ،و شَتَّتَ سَيرَهُ،و أفنى قُتوَتَهُ ..

لَمْ تَعُد عَقارِبُ السَاعةِ تَعني لَهُ شَيئاً،و لَمْ يَعُد لِلنَهارِ أَيُّ مَعنَى، فَما مَعنى أَن تَتَرَصَدَ الوَقتَ و تَتَرَقَبَ انبِثَاقَ الضَوءِ و أَنتَ خَاوٍ مِن كُلِ شَيءٍ،و حتى مِن سِمَةِ الشُعور !! ..

أَنتَ و الوَقتُ و بِدايَةُ كُلِ يَومٍ و اِنتِظَارُكَ لِلأشياءِ بِعينِ التَكَهُنِ مَكَانُكَ سَلَّةُ المُهملاتِ ، فما الذِي أَوصَلَكَ أو أوصَلتَ بِهِ نَفسَكَ إِلَى هَذا المُنعَطَفِ الصَعبِ ! ..

إن أَردتَ أَن لا تُجيبَ فَلكَ ذَلِكَ يا عَزيزي ..
إِنَّها القَهوَةُ في مُنتَصَفِ اللَيلِ ، أتشَرُبها لِتصحو ؟!..
فَأنتَ بِحَالَتِكَ هَذِهِ بِحاجَةٍ لِمَشروبٍ يجعَلُكَ تنسَى ..
أو تَتَنَاسَى !!
إِنَّني اشرَبُ القَهوَةَ لِيَتَسِعَ ليَ المَجالُ لِأرى المُستَقبَلَ بِعِيني أنا فَقَط ، و أمَّا سِيجَارَةُ الحَشيشَةِ إِنَّها النِعمَةُ لِأتَغافَلَ عَنِ الماضي،تِلَكَ السِيجارَةُ التي تَراها أَنتَ و أَمثَالُكَ نِقمَةً على النَفسِ و الجَسَدِ ، و هَل رَأيتَ شَيئاً مُضِرًا بِالصِحَةِ أَكثَرَ مِنْ بَني البَشَرِ؟!! ..
يَجِب أَنْ يَذكروا على عُلَبِ السَجَائِرِ و مُشتَقاتِها :
الحَذَرَ.. الحَذَرَ .. التَخفيفُ مِنَ العَلاقَاتِ البَشَرِيَّةِ تَفادِياً مِنَ الوقوعِ بِأَمراضٍ نَفسيَةٍ و قَلبيَةٍ رُبما تُؤدي إِلَى مَوتٍ حَتفي !! ..
وهَل أَفهَمُ أَنَّكَ قَد وَقَعتَ في شِباكِ بَني البَشَرِ كَأَلسِنَتِهم أو أيديهم أو نَواياهُم ! ..

جَمِيلٌ أَنْ تُزيّنَ سُؤالَكَ الوَاحِدَ في مَنطِقِكَ بِعِدَةِ أسئِلَةٍ في مَنطِقي ، و الأَجمَل مِن هَذا كُلِّهِ أَنْ أُجيبُكَ بِكَلِمَةٍ قاطِعَةٍ مَفَادُها :

لا،أو نَعم ، أو قَطعاً ..

و لَكن طَالمَا أَنَّ اللَيلَ في بِدايَتِهِ و لا يُوجَدُ ما أَقومُ بِهِ سِوى الحَديثِ مَعكَ فَلكَ مِني أَجوِبَةً تَلِيقُ بِتَطَفُلِكَ..

كَمْ أَنتَ قَاسٍ في أجوِبَتِكَ يا أنكُولا جِرجِس ..

هَا هَا هَا هَا .. أنَا قَاسٍ !؟ .. أَمْ أَنَّكُم أَنتُم بَنو البَشَرِ قَد أَعجَبَتكُم لُغَةُ المُجامَلَةِ و دَسُّ النِفاقِ في الكَلامِ!!.. غَريبٌ أمرُكُم .. حَسَناً هَل تَشرَبُ القَهوَةَ مَعي ؟..

لِماذا لا تَنطِقُ ؟

أنا أَعتَذِرُ مِنكَ كَثيراً،أنا أَعلَمُ بِأَنَني وَصَلتُ إِلىَ مُنعَطَفِ القَسوَةِ بِالكَلامِ في الآوِنَةِ الأَخيرَةِ،و لَكِنَّ الذَنب لَيسَ بِذَنبي صَدّقني ..

تَخَيل أَنْ تُمضي طُفولَتَكَ في وَطَنٍ مُشتَعِلٍ بِالحُروبِ و الفِتَنِ ، و تُحفَرُ تِلكَ الصورُ في خيالِكَ مَدى الحَياةِ ، مِما يَجعَلُكَ تَشعُرُ بِالخَوفِ و التّوتُرِ طيلَةَ الحَياةِ ، ثُمَّ تَأتيكَ مَرحَلَةُ الفُتوةِ أي ما يُسَّمى بِالمُراهَقَةِ و تَعيشَ التَغِيُراتِ الجَذريَة لِحالَةِ البُلوغِ ، أَمامَ هَذِهِ المَرحَلَةِ تتغَيرُ نَظرَةُ النَاسِ لَكَ بِشَكلٍ ضَبابِّيٍ فَمَثَلاً: كأن يَتغَيَرَ صَوتُكَ،و يَنبُتَ شَعرُ وَجهِكَ،و تَظهَرُ التَغيراتُ تَحتَ إِبطِكَ ليمتَدَ الأَمرُ إِلى ما بَينَ فَخَذيكَ..

لَنْ تَفهَمَ ما الذي يجري لَكَ و بِكَ .. إلا أَنَكَ قَد أَصبَحتَ رَجُلاً ، و لَكِن بِالعُمرِ الذي وَصَلتَ إِلَيهِ ما يُقَارِبُ العَشرَ سَنَواتٍ ، و أَنتَ لا زِلتَ تَبكي على المَصروفِ اليَومي لَكَ ، و لَا زَالت أُمُكَ تَدخُلُ مَعكَ إِلَى الحَمَّامِ لِتُشرِفَ على تَنظيفِ جَسَـدِكَ بِالمَاءِ و الصَابونِ ، و لا زِلتَ تَتَركُ سَريرَكَ مُبعثَرًا و تَخرجُ إِلَى مَدرَسَتِكَ ، و لا زال والِدُكَ يَنتَظِرُ

قُدومَكَ أَمامَ بابِ مَنزِلِكَ في الساعَةِ الثامِنَةِ مَساءًا لِأنَّ التَأخيرَ مَمنوعٌ ، و لا زال أخَاكَ الأكبر يُلاحِقُكَ بِكُلِ وَسَائِلِ التَعنيفِ لِتُنهي وَظائِفَكَ بِحُكمِ أَنَّ أَبوَيكَ أُميّين ، و لا زِلتَ تَنامُ بَاكِرًا لِتَصحو باكِرًا و أَنتَ مُـكرَهٌ ..

كَانَتِ الأَحلامُ صَغَيرَةٌ جِدَاً كَثُقبِ إبرَةٍ ..

كُنَّا نَرى العَالَمَ عَبرَ الشاشَةِ الصَغَيرَةِ التي كانَ يَستَلِمُها أبي فَورَ قُدومِهِ إلىَ المَنزِلِ، فَلَم تَكُن هُنَاكَ قَنَواتٌ لِلَأطفالِ و لا لِلدراما و لا لِلموسيقى و لا غَيرَ ذَلكِ ..

فَضائِيَتينِ فَقط .. لُبنان الأولى .. و لُبنان الثانية ..

كُنا كَأطفالٍ نَكرَهُ مُوجَزَ الأَخبارِ و خاصَةً في الساعَةِ الخامِسَةِ مَساءاً،و كانَ والِدي مِنَ المُنتَظِرينَ لِذلِكَ المُوجَز ..

كُنَّا نَرى شَجاعَتَنا في المُسَلسَلِ الرَهيبِ الذي نَنتَظِرُهُ بِفارِغِ الصَبرِ يَومياً :

الكابتن ماجد و الكابتن رابح ، فَكانَت مِن أُغنياتِنا المُفَضَّلَةِ :

عَليٍّ عَليٍّ بَطَلَ فليد،و بيل و سِبَستيان، فَكانَ مِن أَبطالِنا :

عَدنان و لينا،و الشُجَعانُ الثَلاثَة ..

و أَمّا ما كُنا نَهواهُ أَنْ نُسافِرَ بِرِفقَةِ :

ساندي بيل و ياسَمينة عَبرَ جَمَلِهم سَفينَةُ الصَحَراءِ..

نَصحو على الأَحلامِ و نَنَامُ على الأَحلامِ ..

و كَبِرنا و في آخِرِ المَطَافِ أَضحى كُلُ شَيءٍ وهَمٌ بِوهمٍ ..

يا ليتَنا لَمْ نَكبُر .. و يا لَيتَ شَعرَ وَالِدي و والِدَتي لمْ يَشيب ! ..

أَيُعقَلُ أَنَّ كُلَ هَذا الشَيبِ كانَ بِسَبَبنا نَحنُ ؟! ..

و مَن نَكونُ نَحنُ لِقَلبِ الطاوِلَةِ على شَبابِهم !

يَقولُ أَهلُ الهَوى : بِأَنَّ الأَبنَاءَ هُم ثَمَرَةُ الحُبِ ، و في أَغلَبِ الأَحيانِ يأتونَ لِلآباءِ نِعمة ، أما في نَظَري فَهُم نِقمَةٌ و لَعنَةٌ مدَى الحَياةِ ..

فَلَقَد كَان وَالِدي يَعمَلُ في مَنجَرَةٍ لِنحتِ التَوابيتِ ، فَكَم كانَ أَمراً مُضحِكاً و مُخجِلاً في الوَقتِ ذاتِهِ، فَكُنتُ أَتَجَنَبُ أَسئِلَةَ الناسِ و تَطَفُلَهُم عِندَما يَسأَلونَني:

ماذا يَعمَلُ وَالِدُكَ **!؟** ..

كُنتُ أُصابُ بِالخَجَلِ،و أَتَمَنَّى لَو أَنَّ هَذا الكُونَ يَبتَلِعُني و أنتَهي مِن هَذِهِ الوَرطَةِ ، كَبُرتُ و رأيتُ والِدي ويَداهُ ترتَجِفان، غَزَاهُ رأسَهُ الشَيبُ ،و ضَعُفَ النَظَر ، و تَرهَلَت مَلامِحُ الوَجهِ ، نَعَم لَقَد فَقَدَ صِحَتَهُ تدريجياً، و لَكن لَمْ يَفقد طُهرَ قَلبِهِ، لَقَد شَعَرتُ بِهِ في مَرحَلَةِ التَوجيهي، يأتي كُلَ مَسَاءٍ مُنهَـكَـاً مُرهَقاً مِنَ التَعَبِ ، يَطوي جَسَدَهُ على الأَرِيكَةِ مِن بَعدِ أَن يَستَّحِمَ و يُبَدِلَ ثيابَ عَمَلِهِ ..

مِن هَذا المَشهَدِ شَعَرتُ بِالنِعمَةِ التي نَعيشُ بِها، سأَلتُ نَفسي ذاتَ يومٍ:

لَو أَنَّ صَانِعَ التَوابيتِ قد وضِـــعَ في التَابوتِ يَوماً، ما الذي سَيحدُثُ لَنا يا تُرى !!

يا عدرا .. سَتَكونُ مُصيبَةٌ عُظمى ..

رُحتُ انتَظِرُهُ عِنَدَ البابِ، و أُقَبِلُ رَأسَهُ كُلَّ يَومٍ ، و عِندما يَنتَهي مِن تَنَاولِ العَشاءِ و الإنتِهاءِ مِنَ الإستِحمامِ أُدَلِكُ لَهُ ظَهرَهُ و ساقيهِ ، فَكَانَ يَشعُرُ بِالراحَةِ و ينَامُ كالمُغمَى عَلَيهِ ..

اِقتَرَحتُ عَلَيهِ أمراً ، قُلتُ لَهُ ذَاتَ لَيلَةٍ :

أَبَتاهُ .. كُلُ يَومٍ بَعدَ أَن انتَهي مِنَ المَدرَسَةِ سَوفَ آتي إليكَ لِمُساعَدَتِكَ ، و أَتَمنى أَنْ لا تَرُدَ طَلَبي فأَنتَ مُتعَبٌ جِدّاً .

ضَـمَّني بِحَرارَةٍ وَقتَها ..

شَعَرتُ بِدِفـءِ صَدرِهِ ، و خَريرٍ قَويٍّ يَجري في أَنفاسِهِ ..

قُلتُ لَهُ وَقتَها ، هَل يؤلِمُكَ صَدرُكَ يا أبي !

لَقَد سَمِعتُ شَيئاً غَريباً وَصَلَ صَداهُ إِلى مسامِعِ قَلبي!!

هَل أَنتَ بِخَير يا والدي ؟؟

اِبتَسَمَ والدي مِن سُؤالي ، رُبّما شَعرَ بِي ، شَعرَ بِأَنَني خَائِفٌ عَليهِ ، هُو مَن كَان دائِماً الحَاضِرَ بِهيبَتِهِ الغَائبُ بِجَسَدِهِ ، هَل أَوصَلَهُ جَسَدهُ إِلىَ هَذِهِ الحالَةِ مِنَ الإِرهاق ! ..

كَانَت تَربِيَتُهُ كَريمَةً عَزيزَةً ، يُطعِمُنا مِن عَرَقِ جَبينِهِ ، و تآكُلِ عُمرِهِ ، و مِن تَلاشِي عافيتِهِ ، و مِن ذَوبانِهِ في مَنجَرَتِهِ ..

لَمْ يَضرِبْنا يوماً و لَمْ يَغضَب مِن أفعالِنا ، أحسَنَت أُمُنا تَربِيَتنا،و أنهَكَت قِواها لِتَصنَعَ مِنا جيلاً صَالِحَاً ، كُنا أحياءً بِهم ..

يَأمُرُنا في كُلِ صَباحِ يَومِ احدٍ أَن نَرتَدي اجمَلَ ثيابِنا ، و نُهَذِبَ مَظهرنا، و نَسيرَ مَعَهُ إِلىَ كَنيسَةِ القَريَةِ لِلصَلاةِ ..

كَانَ رَجُلاً مؤمِناً بِالسَيدِ المَسِيح إِيمَاناً عَميقاً ، فَبينَهُ و بينَ الَسيد المَسيح وِحدةُ حَالٍ ، رُبما اِختِصاصُهُ في صُنعِ التَوابيتِ هو مَن أَوصَلهُ إلى تِلكَ القناعَةِ بِأنَ الإِنسانَ لا قيمَةَ لَهُ ما لَمْ يَلجأ إِلى الله حتى في أَسعَدِ حالاتِهِ ، كانَ الناسُ يُحبونَهُ و يُـكِنونَ لَهُ الاِحترامَ لِأَنَّهُ رَجُلٌ مؤمِنٌ و صَاحِبُ سُمعَةٍ طَــاهِرةٍ..

اذكُرُ ذَاتَ قُدَّاسٍ عِندما ذهبنا مَعَهُ إِلى الكَنيسَةِ ، فَعِندَ انتِهاءِ الصَلاةِ و تلاشي المُؤمِنينَ مِنْ أروِقَةِ

الكنيسة جَلسَ وَحِيداً و نَحنُ نَنتَظِرُ خُروجَهُ جالِسينَ على الكَراسي الخلفيَةِ في الكنيسةِ ..

شَبَكَ أصابِعَهُ ، و خَفَضَ رأسَهُ أمامَ السيد المَسيح رَافِعاً صَوتَهُ ، مُبتَهِلاً بِنبراتِ دُعائِهِ :

رَبّاه .. أنتَ أعلَمُ بِضَعفي ، اِحفظ لي عَائِلَتي ، و كُنْ مَعَهُم في كُلِ أحوالِهِم أننا لَيسَ لَنَا غيرُكَ ..

آمِين .. آمِين .. آمِين ..

اخرَجَ مِنديلاً قَد وَرِثَهُ عن والِدِهِ الذي وَرِثَ مِنهُ مِهنَةَ تَصنيعِ التوَابيت ، و مَسحَ بِها خُشوعَهُ و دُموعَهُ ..

كانت تِلكَ هي المَرّةُ الأولى التي أراهُ فيها يَبكي .. مَا هَذا الإيمان !! ..

لَقَد طَلَبَ مِنَ الأبِ إلياس رَئيسَ الأديرَةِ المارونيَةِ في القَريَةِ أَن يُرَمِمَ كَراسي الكنيسَةِ و الصُلبانِ الخَشَبيَةِ على نَفقَتِهِ ، و بالرغمِ مِن فَقرِهِ ، و حالَتِهِ المَاديَةِ السيئَةِ والتي لا تَكَادُ تَكفي نَفقاتِ العَائِلَةِ إلا

أَنَّهُ عَمِل على ترميمِ الكنيسَةِ شيئاً فشيئاً وأتم هذا العمل على اكمَلِ وجهٍ.

كنا كلَ يَومِ سَبتٍ وبَعدَ الإنتهاء مِن تنَاولِ وَجبَةِ الإفطار ، كُنا نَذَهبُ مَعهُ إلى الكَنيسة المارونيَةِ ، حامِلينَ مَعَنا مَعداتِ العَمَل لِنُساعِدَهُ في أعمالِ التَرميمِ ، شَهرٌ كـامِلٌ و نَحنُ على هَذِهِ الحالَةِ حتى انتهينا و عادَتِ الكَنيسَةُ اجملَ مِنَ السَابقِ ..

إِنَّهُ الرجُلُ المُؤمِنُ الذي نَفخَرُ بِهِ دائِماً ، طَيبُ السُمعَةِ ، طَيبُ القَلبِ ، طَيبُ الخَطواتِ ، ذُو الخُلقِ العالي بِابتِسامَتِهِ ..

لَمْ نَعُد نَخجَلُ مِن مِهنَتِهِ ، بَلْ رُفِعَ اسمُهُ و صَوتُهُ و خُلُقَهُ عالياً ، نَحنُ لَمْ نَرث مِنهُ سِوى تِلكَ الطَهارَةِ التي لا تُقارَنُ بِأموال الكُونِ قاطِبَةً ..

فَلَقَد كَانَ لِحُضورِهِ في المَحافِلِ العَامةِ صَدىً عميقاً بِهيبَتِهِ ، ما إِن تَراهُ العيونُ حتى تُرَحِبَ بِهِ القُلوبُ، و يَبتَهِجُ المكَانُ بِوجودِهِ ..

ضحكَتُهِ .. آهٍ مِنها كَمْ هِيَ جَمِيلَةٌ !! ..

هَل تَعلَم بِانني في شَوقٍ لَها ؟ ..

نَعم إنَني مُشتاقٌ لأناقَتِها ..

لَمْ يـكُن يُخبِرُنا بِأَنَهُ مُصَابٌ بِآفَةٍ قَلبيَةٍ و رَبوٍ حَادٍ في صَدرِهِ ، لَيسَ خَوفاً على صِحَتِهِ ، بَل خَوفاً على مَشاعِرِنا ، حَتى سَقَطَ مَغشياً عَليهِ ذَاتَ صَيفٍ و هُوَ عائِدٌ مِنْ عَمَلِهِ ..

طُرِقَ بَابُ المَنزِلِ قَبلَ غُروبِ الشَمسِ بِشِدَةٍ :

افتحِي الباب .. أم انطون ..

فَتحت أُمي البابَ و الرُعبُ قَد انهَكَ قِواها ..

خير .. خير .. شُو في !!

كَانَتِ المَرأة مُصفَرَةَ الوجهِ مِنَ الفَزَعِ :

اسرعي, زَوجُكِ، سَقَطَ مَغشياً عَلَيهِ في الحَافِلَةِ قَبلَ قَليلٍ ، و قَدْ نَقَلوهُ إلى مُستَشفى القَرِيَةِ ..

كَادت أُمي أَن تَقَعَ عِندما سَمِعَتِ الخَبَر ، حَتى رَكضَنا إليها نَحمِلُها على أكتافِنا مُتهاذِيَةً و هي تَصرَخُ :

يا عَدرا دَخِيلك .. يا عَدرا دَخِيلك !! ..

خُدونِي إِلىَ المَشفى ..

إِنَّها السَاعَةُ السَابِعَةُ مَساءً ، حَاوَلت أُمي أَن تمنعنا مِنَ الذَهابِ مَعها إلاّ أَنَ دُموعَنا شَفَعَت لنا عِندها ، رَكبنا معاً حافِلَةَ القَريَةِ المُتَجِهَةِ إِلى المَشفى ، حتى وَصلنا مِن بَعدِ أَن خَرَّت قُلوبُنا مِنَ الخَبَرِ..

اَتجهنا إِلى مَكتَبِ الاِستِعلامات ، و الحُزنُ قَد اخَذَ مأخَذَهُ في قُلوبِنَا ، مَا أقسَاهُ مِن خَبَرٍ ، و مَا أعنَفَهُ مِن مَوقِفٍ ، رَاحت أُمي تَسألُ عَن غُرفَتِهِ :

وَين بَلاقِيهِ !! ..

إِنَّهُ في غُرفَةِ العِنايَةِ المُرّكَزَةِ .. إِنّهُ مُصَابٌ بِأزمَةٍ قَلبيَةٍ .. نتمنَى مِن الرَبِ أَن يُنقِـذَهُ ..

مِسكِينَةٌ أُمي صَاحِبَةُ الحُبِّ المُغَلَفِ بِأشرِطَةِ الخَجَلِ و الأدبِ ، هُنا سَتعلَمُ بِأنَ الحُبَّ لَيسَ لَهُ مَشهَدٌ سِوى اللّهفَةِ على الحَبيبِ ، هُنا سَتعلَمُ بِأن اختِيارَكَ المُناسِبَ سَيتَضِحُ في أَشَدِ المَصائِبِ ، هُنا أنتَ و المحبوبُ في غَصَةٍ واحِدَةٍ فأنتَ مَن وَقَعَ و المُحِبُ مَن تَألَمَ ..

لا تَتألَمي أيتُها الروحُ ، فأنا المُصَابُ بِلعنَةِ العِشقِ و آهاتِهِ ..

حَملَت أُمي مُصابها ومضينا معاً إلى غُرفَةِ العِنايةِ المُرّكَزة ، حَتى وصلنا حَاجِزاً زُجاجياً ، و بيننا و بَينَهُ سَرابٌ ...

إِنَّهُ أبي ، الرَجُلُ الطَيّبُ ..

كانَ مُمدداً هناكَ على سَرير ِالربِ ، شَاخِصُ البَصَرِ إلى الله ..

قَد أُدخِلَتِ الخَراطِيمُ في فَمِهِ ، مِن بَعدِ أَن جُرِدَ مِن ثيابِهِ ، و صَدرُهُ يَعلو و يَهبُطُ على حَسبِ العدَّادِ

التَنازُلي لِلأكسجين ، كَانَتِ العُيونُ تَنظُرُ إِلَيهِ مِن خَلفِ الزُجاجِ ، كَانَت الدُموعُ تَرفَعُ لِلربِ صَلواتِها ، كَانتِ القُلوبُ تُعتَصَرُ ألماً مِن ذَاكَ المَشهَدِ القاسي .. رَاحت أختي تُحدِثُهُ ، استيقظ يا أبتي ، نَحنُ نَنتَظِرُكَ ، استَيقظ يا حَبيبي فَلَقَد اعددنا لكَ التَبولة و الكِبة بالبُرغُل ، استَيقظ يا رُوحي فَإنَّ أريكَتَكَ تَنتَظِرُ قُدومَكَ !!

هَل تَسمعُني يا أبَتي !! ..

خَلفَ الزُجَاجِ نُراقِبُ ابتِسامَتَهُ ، نَلحَظُ طَلَّتَهُ ، نَهمِسُ في قَلبِهِ ، مُتشَابِكَةٌ ايدِينا لله ، نَذرِفُ ألمنَا على مَذبَحِ الدمُوعِ ..

دَعني أهُزُ سَريركَ لِنُريحَ ألَمكَ .. كمَا كُنتَ تَهُزُ أسِرَةَ طُفولَتِنا ، دَعني امسَحُ دُموعَ وَجَعِكَ كما كُنتَ تمسَحُ الحُزنَ بِطيفِكَ ، فِيا أنوار العَدراء :

أينَ انتي يا أُماهُ ، أين بَلسَمُ أنوارِكِ يا طَبيبَةَ العَليلِ!!..

إِنَّهُ الإنتِظار ..

هَل تَذكُر !!

هُوَ مَن كَان يَنتَظِرُ مَجِيئَكَ إِلى هَذِهِ الدُنيا بِفارِغِ اللَّهَفَةِ !! ..

هُوَ مَن أقامَ لِقُدُومِكَ حَفلاً شَهِدَهُ القاصي و الداني !!

هَل تَذكُرُ عِند ما عَمَّدكَ و هَزَ لِلرَبِ جَسدَكَ و أطعَمَ القَرابين لِيحفَظَ الله صِحَتَكَ !!

إِنَّهُ الانتِظارُ الصَعبُ ..

كَانَ يَنتَظِرُ قُدومَنا مِنَ المَدرَسَةِ بَعدَ نِهايَةِ كُلِ فَصلٍ دِراسيٍ ، يُرِيدُ أن يُشَارِكَنا فَرحَتَهُ ، يُخَبئ لَنا الهَدايا خَلفَ سَعادَتِهِ ، يُعِدُ لَنا حَفلاً تِلوَ الحَفلِ ، يُنفِقُ ما جَمَعَهُ طِوالَ السَنَةِ لِيزَرعَ البَسمَةَ على وجُوهِنا ..

إِنَّهُ رَجُلُ اللحَظاتِ المُشبَعَةِ بِعُذُوَبَةِ السَعادَةِ.

إِنَّهُ يَنتَظِرُ ، و نَحنُ نَنتَظِرُ ..

كانَ دائِماً ما يتَرَقَفُ اللحَظَةَ الحَاسِمَةَ لِإسعادِنا، و هَا نَحنُ اليَومَ نَنتَظِرُهُ لِيُسعِدنا كما دوماً ، أبتَاه

أرجوكَ استَيقظ فَنَحنُ بِحَاجَةٍ لِفيتامين وجودِكَ بينَنا ، كُلُنا مُشتاقٌ لَكَ ، كُلنُا بِحَاجَةٍ إِليكَ ، كُلنا مُنَكسِرونَ أمامَ ما تُشاهِدُهُ أَعْيُنُنا ..

نُراقِبُهُ خَلفَ الزُجَاجِ ، وقوفاً على حُزنِنا, تحبو إِلَيهِ أَرواحُنا، نُرِيدُ أن نَلمِسَهُ ، أن نَهمِسَ في أُذنَيهِ ، أن نمسَحَ جَبينَهُ ، أن نُغطيَ جَسَدَهُ ، أن نُقبِلَ يَدَهُ ، أن نُعطيهِ أرواحَنا لِنَحيا ..

أَيُعقَلُ أن يترُكَنا لِلحَياةِ و يَرحَل ؟! ، هَل سَيحِلُ مَكَانَ سَعَادتِنا الحُزنُ الذي لا يُحتَمَل ؟!! ..

كَم هُوَ المُوتُ قَاسٍ ، و كَم هِيَ المَصائِبُ أشَدُ قَسوةً..

لا تَكتُب ذَلِكَ أرجُوك ..

أنَا مُتَأكِدٌ بِأَنَهُ سَيصحو ، لَقَد وَعدَنا أن يَعودَ بَاكِراً ، لأنَ أُمي أعدّت لَهُ طَعَامَهُ المُفَضل ، كَما أنَني أنتَظِرُهُ لِكي أُدَلِكَ لَهُ جَسَدَهُ ، كَما وَعَدَنا أن تَكُونَ أُمسيَتُنا طَويلَةً ، فغَدَاً يومُ عُطلَةٍ ..

أبتَاهُ .. لَمْ نَعهدْكَ تُخلِفُ موعِداً !! ..

مَاذَا جَرى ، أرجُوك اسَتِيقظ ..

رُبما أعجَبتكَ دُموعُنا ! ، استَيقِظ و سَوف نُغرِقُ هَذا العَالمَ بِدُموعِ الفَرحِ ، أُريدُ أن أُخبِرَكَ بِأنَ المُدَرِسَ اليَوم قَد كَافَأَني و طَلَبَ مِنَ الفَصلِ كُلِهِ أن يُصَفِقَ لي ، الَستَ تُحبُ هَذا الشَيءَ يا أبَتي ! ..

أخَذَ الوقتُ يُذِيبُ لُبَنا ، و يَحرقُ أحشائَنا ، و يَسحَقُ أرواحَنا ، و ما استيقَظَ الرَجُلُ المُمَدَدُ ..

الساعَةُ العَاشِرَةُ ليلاً ..

الكُلُ إنهارَ مِنَ التَعبِ ، حَتى رَمينا بِأجسَادِنا على الكَراسي المُواجِهَةِ لِلحَاجِزِ الزُجَاجيِ ، و لا زَالَت أُمي مُواجِهَةً لِلألَمِ ، وَاقِفَةٌ على سَاقيّ قَلبِها ، تَتَرَصَدُ العَدَّ التَنَازُلي و رُبما التَصاعُدي لِلحَالَةِ التي لَمْ تَتَقدم و لَمْ تَتَأخَر .

لم يَتَوقَف سَيلُ الدَمعِ الجَاري على خَدَّيها ، لم يُنهِكها التَعَبُ الذي حَلَّ بِها ، إنَّها الزَوجَةُ الريفيَةُ ،

التي أَحَبت رَجُلاً ريفياً ، لم يَعرِفوا يوماً كَوكَبَ التِكنولوجيا و لا مَجّراتِ التَواصُلِ الإجتِماعي ، هَذِهِ الفِئَةُ مِنَ العُشَاقِ ، الذين يَستَرِقونَ الحُبَ مُنَاصَفَةً ، يَعرِفونَ القُلوبَ بِلُغَةِ العُيونِ لا بِلُغَةِ الجيوبِ ، يَكتَشِفونَ المُهَجَ بِأجواءِ اللَّهفَةِ لا بِطُقوسِ التَّكَبُرِ و التَعَجرُفِ ..

لَمْ تَجمَعُهُم المواقِعُ الإلِكترونية ، بَل جَمَعَتهُم نَظرَةٌ ، فَكَلِمَةٌ ، فَلَهفَةٌ ، فَشَغَفٌ ، فَعِشقٌ ، فَقُبلَةٌ ، فَضَمَةٌ ، فَحَياةٌ زَوجيَةٌ ، لِتُنبِتَ ثَمَرةَ حُبِهِما، أهلُ الهَوى لا يَحَكمُونَ على الحُبِ بِبِداياتِهِ بَل بِنِهاياتِهِ ، النِهايَةُ هِيَ التي تُحَدِدُ الفَوزَ بِلعُبَةِ الحُبِ ..

أحمدُ الرَب بِأنَهُ لَيسَ لِلحُبِ جُيوبٌ ، و لا خَزائِنَ ، و لا أرصِدَةً ، و لا حِسَاباتٍ وَهميَةٍ و لا بَنكيَةٍ ، فَمِن مُفسِداتِ طَريقِ الحُب المالُ و المَنَاصِبُ و التَكَبُرُ و الكَذِبُ ..

فالعاشِقُ المُتَجَرِدُ مِنَ الكَذِبِ و أُبَهَةِ الماديات و المَحسُوبياتِ لَهُوَ العَاشِقُ الذي يَمتَدُ مَعَهُ الحُبُ ما دَامَ حَياً ، و العَاشِقُ المُتَخَبِطُ ذُو الأقنِعَةِ الوَهميَةِ و الخُدَعِ الجُنُونيَةِ لَهُوَ العَاشِقُ ا المُتَسلِطُ و المُتَسلِقُ على جِدَارِ المَصَالِحِ الشَخصيَةِ هو العاشِقُ الساقِطُ ، هذا العَاشِقُ دوماً ما تكونُ نِهايَتُهُ قريبَةٌ و حَتفُهُ يَنتَظِرهُ ..

تَقُول أُمي بِأَنَّها عَشِقتهُ ، و عَارَضَت جَميعَ أهلِها لِأَنَهُ شَابٌ صَادِقٌ ، و ما كَانَ يَجذِبُها هو جَمَالُهُ و رَصَانَتُهُ ، فَدَائِماً كَانَ يَقولُ : أنزِلوا أهَلَ الحُبِ مَنَازِلَهُم ، فَإنَ هَذا القَلبَ لا يَقبَلُ الشُركاءَ ، و لا يَتَسِعُ لإثنين ، كَما الرُوحُ كَذَلِكَ ، فَإِنَّها لا تَهوى إلا وَاحِداً ..

فَلتَكُن العَدرا مَعَاهُ ، لَمْ يَفهَم لُغَةَ الحُبِ سِواهُ ، فَمِن أينَ اكتَسبَ عَقيدَةَ الحُبِ و فِقهَهُ !! ..

إِنَ الذي جَعَلَ أُمي تَعيشُ مَعهُ ، و تَتَعايش مَعَ حَالَتِهِ و فَقرِهِ هُوَ الصِدقُ ، و إِظَهارُ حَقيقَتِهِ ، قالَ لَهَا يَومَاً قَبلَ زوَاجِهِمَا :

لَيسَ عِندي مَا أُقَدِمُهُ لَكِ سِوى الحُبِ ، فَهَل تَقبَلي بي مُحِباً و عَاشِقاً !! ..

لَقد حَمدتُ الرَبَّ بِأَنَهُم تَزوَجوا في زَمَنٍ كَان بينَهُ و بينَ الحُبِ صِلَةُ هَوى ..

فَلَم تُغرِهِم المَادّياتُ و لا لم تَكُن مَعلومَةٌ عِندَهُم خِبرَةُ البُنوكِ و لا الجُيوبِ و لا الشَهادَاتِ و لا المَنَاصِبِ ، فَلقد كَانَت تَقولُ أُمي :

مَن تَزوَجت لِلمالِ و لِلشَهواتِ ، فَلن يوقِفَ طَلاقَها أحد ، لِأَنَ فِراقَهُما آتٍ لا مَحَالة ، و مَن تَزوَجت لِلحُبِ و لِلعِشقِ فَلن يُفَرِقُهَما أحد ، حَتى لَو اجتمع الكُونُ بِأسرِهِ .

مِسكينَةٌ مَن تَأثرت بِالمَالِ ، مِسكينَةٌ مَن كانت أحلامُها دوراً و قُصوراً ، مِسكِينَةٌ مَن أُوهَامُها بِالبُنَوكِ و المَركَباتِ ، فَقلد كَانَ والِدي يقولُ:

إنَ الحُبَ لا يُشتَرى بِالمَالِ و لا بِالدُورِ و لا بِالقُصورِ و لا بِالحِسَابَاتِ و لا بِالمَركَبات ، فَمن كَان هَمُّهُ هَذِهِ النِفاياتِ سَيصِلُ بِكَ العُمرُ إلى أن يَكونَ حَولكَ جَمعٌ لا بَأسَ بِهِ مِنَ الوَرَثَةِ و اللُصوصِ و من يَنتَظِرونَ موتَك ..

وَحدَهُ الحُبُ الصَادقُ مَن .. يَدوم .. و يَدوم .. و يَدوم ..

اختَر ِالشَخصَ المُنَاسِبَ لِلقَلبِ المُنَاسِبِ ، لِيُكمِل مَعَكَ العُمرَ ، عيشوا مَعاً ، و موتوا مَعاً ، فَكمَا قَالَ مَن عَرِفَ العِشقَ و أوصَافَهُ :

النَاسُ مَوتَى و أهلُ الحُبِ أحياءٌ ..

مَا مَعنى أن تَكونَ حَياً بِمالِكَ و نِفاياتِكَ و في دَاخِلِكَ خَرابٌ و مَوتٌ ! ، مَا مَعنَى أن يُحييكَ المَالُ و تقَتُلُكَ رُوحك و يُبَدِدُكَ قَلبُكَ !! ..

المَعنَى الحَقِيقِي هُوَ أنَّكَ لا تُريدُ أن تَعي فَلسَفَةَ الحَياةِ إلا في آخِرِ العُمرِ، هُنا و عِندَ هَذِهِ النُقطَةِ التي وَصَلتَ اليها مِنَ الهَرَمِ و الضَعفِ ، اخبرني مَن بَقيَ مَعَكَ !! ..

لا تَقُل شَيئاً ، أنَا سَأُجِيبُ عَنكَ :

إنَ الذِينَ خَافوكَ و احتَرمُوكَ و هَا قَد وَصلوا إلى مَا يَتمنونَ هُم جَمعٌ مِنَ الُلصوصِ و أصحابِ المَطَامِعِ الشَخصيَةِ مِنَ الوَرَثَةِ ، هُم فَقط من يتمنُونَ هَلاكَكَ لأنَ الذِي أطال عُمركَ هو مَالُكَ ، هُم يتمنون المَوتَ لَكَ أكثَرَ مِنَ الذِينَ يُريدونَ لكَ البَقاءَ على قَيدِ أمَوالكِ ..

فَيا لَكَ مِنَ مِسكين .. فَلَقَد كَسِبتَ الوَرثَةَ و خَسِرتَ الحُبَ .

قَاتِل مِن أجلِ ما تُرِيد ..

هَكذا و بُلُغَةِ الحُزنِ أقولُ لَكَ قَاتِل مِن أجلِ مَا تُرِيد..

أَشعُرُ بِأنَ هَذا الشِعار يَنطَبِقُ على المَشهَدِ الذي ساقَهُ لَنا القَدَرُ و السيناريو الذي تَسعى إِليهِ أُمي ..

شَعرتُ بِشِدَةِ حُزنِها ، كأَنَ هَذِهِ اللّهفةَ تَقول :

يا لَيتَها كانت الطَبيبة ، أو المُمَرضة ، أو حَتى عامِلَةَ نَظَافةٍ حَتى يَتسَنَى لَها الدُخُولَ إِليهِ ، أَشعُرُ أَنها تُريدُ أن تُحطِمَ الزُجاج ، و تَقتَحِمَ السَراب ، لِتحتَضِنَ جَسَدهُ ، بَل تَبتَلِـعَ أَلَمَهُ ، تُرِيُدهُ أن يَعود ، لا مِن أَجلِنا بَل مِن أَجلِها ، و لَكَأنها تَقولُ لَهُ :

أرجُوكَ اِستَيقظ ..

هَل أعجبَتكَ غَفوةُ الذَاكِرة ..

أنا زَوجتُكَ و حَبيبَتُكَ و كُلُ عَائِلَتِكَ ..

أرجوكَ لا تَخُن الذَاكِرة و لا تَخُن الغياب ..

فَأنَا التي لَمْ أخُنكَ يَوماً ، تُريدُ أَن تُلقي بي على قَارِعَةِ الضَياع ! ، هَل تُريدُ أَن تَخُون صَبري ، و

تُبَدِدَ تَحمُلي ، فأنا التي لَمْ أَجُع و لَمْ أعطَش و لَمْ أتعَب إلا في غيابِكَ ..

لا تَخُن الحُب ..

فَإِنَنا على دَربِ القُلوبِ نَسِيرُ، و إلى هَواكَ أطِيرُ ..

هُنا و في هَذا الموقِفِ :

أشعُرُ بِأنَ أُمي ضَائِعَةٌ ، و لا تَعلَمُ ما سَتَفعَلُ ، فَزَادَ الوَجعُ في قَلبي يا لها مِن مِسكينَةٍ ، لَقَد كُسِرَ قلبي لرؤيَةِ حالِها هذا.

الوَقتُ يَتَقَدَمُ بِلسَعاتِهِ، و وَالِدي لَمْ يَستَيقِظ بَعد ..

الأَجهِزَةُ فَوقَ رَأسِهِ تَعزِفُ لَحنَ النَجَاةِ ، و بينَ مَدٍ وَ جَزرٍ ، يعلو صوتُ الجِهازِ المُتَصِلِ بنبضاتِ قلبِهِ الضعيفةِ مُستَمِراً بِبَثِ الفَزَعِ في أرواحِنا.

صَوتٌ واَحِدٌ بِلا انقِطَاع ..

صَوتٌ وَاحِدٌ للرُعبِ الأنِيق ..

صَوتٌ سَرمَديٌ لِلفَزَعِ الجَميل ..

صَوتٌ يَهُزُ سُكُونَ لَيلَةِ السَبتِ ..

صَوتٌ لا يَقرأُ تَراتيلَ الهُدوءِ المُبعثر ..
صَوتٌ لا يَكتُبُ هَواجِسَ اللحَنِ المُقفى ..
صَوتٌ لا يُسمَعُ إلا مِن مَنافِـذِ التَوجُسِ ..
صَوتٌ لَولَبيٌ بِنَفَسِ الأُوكسجين المُغطَى بِالمَوت ..
تَراكَضَ الأَطِباءُ عِندَ سماعِ شَهقَةِ الصَوتِ الفَوضَوية ، شيءٌ ما حدث! تَدافَعنا نَحوَ الزُجَاجِ نُشَاهِدُ ما الذي يجري !! ..
و لَكن خلفَ الحَاجِزِ الزُجاجي، أُسدِلَ السِتَارُ ليحجُبَ عنا المشهد، صرخنا,توسلنا, وبَـكينا فَزعاً وحَيرَةً, ما الذي يجري ؟؟!!، و لَكِنَ العَويل ما أفادَ.
وَقَعَت أُمي أَرضاً، فَوقَعَت قُلوبنا مَعَها ،عَلَت أَصواتُ نحيبنا و تَسَربَت إلى كُلِ أروِقَةِ المَشفَى ، حاولَ بَعضُ الزُوارِ التَخفِيفَ عنا ، إنهم لا يعلمون سِرَ الحبلِ السري الذِي يَربِطُنا بِوالِدِنا حَبلٌ يأبى الإنقِطَاع.

إنهُ حَبلُ التَعلُقِ اللاهُوتِي الذِي رَبَطهُ بين بَنِي البَشَر ، و خاصةً مَن قَاسمتَهُم حَياتَهُم و سَعَادَتَهُم و حُزنَهُم ، فَهَذا هو الشَيءُ الوَحيدُ الذي لا يُمكِنُكَ التَحكُمَ بِهِ ، ألا و هو القَلبُ و مَا يَدورُ بِهِ مِن مَشَاعِر ، و لو أنكَ لم تَتَفَاعَل مَعَ المُصَابِ ، لَقالوا عَنكَ بِأَنكَ مَعَ المُصِيبَةِ ، أي أنَكَ سَعِيد بِمَا حَلَ بِنا مِن بَلاءٍ ..

خَمَسةَ عَشَرة دَقِيقَة و صَخبُ البُكاءِ لَمْ يهدأ و لم يَصمُت العَويلُ فينا ، خَرجَ الطَبِيبُ يَضرِبُ كَفَاً بِكَفٍ ، و لَكَأنهُ انتهَى مِن أمرٍ حاولَ مَعهُ مِراراً و تَكراراً و لَكِنهُ لم يُجدِي نَفعَاً ..

زَحفَت أُمي أرضاً إلى قَدمِ الطَبيب تَندُبُ قَائِلَةً :

ـ خَير يا دُكتور هل تَحّسَنَ قَليلاً !! ؟

اِنخَفَضَ إِليها مُحتَرِماً سِنَها و أُمُمَتَها ، و في عَينيهِ نَظَراتُ بُؤسٍ و يأسٍ و شَيءٍ مِن حُزنٍ مُعَتَقٍ ..

دائِماً يا أُم انطون لِلربِ حِكمَةٌ في كُلِ شَيءٍ ، و أكبَرُ نِعمَةٍ أننا أُنَاسٌ مُؤمِنونَ بِالرَبِ ..

أبو انطُون رُوحهُ في السَماء، العُمر الكُون !! ..

أَيُعقَلُ!! و بِهَذِهِ البَسَاطَةِ أَن يَفقِدَ الإِنسَانُ حَياتَهُ ، بِلا مَوعِدٍ أو أن يُهِيءَ نَفسَهُ أو أَن يُوَدِعَ أحِبائَهُ ؟! أَيُعقَل يا أَبتاه بِأن يَكُونَ مَأواك خَارِجَ أسوارِ سَرِيرِكَ ؟! أيُعقَل أن نَنَام هَذهِ اللِيلة و لا نَرى فيها طَيفَكَ يَتَسرَبُ إِلى غُرَفِنا ليطمَئِنَ عَلينا ! ..

وَ منَ قَال بِأَنَنا سَنَنَامُ يا أبتاه ؟؟ ..

لا نَامَت أعيُنُنا إِن نِمنا بَعدَ هَذا المُصَابِ ..

سَقَطَت أُمي مُغمَى عَلِيهَا مِن وقعِ الخَبَرِ المُفجِعِ ، رَاحَ الطَبِيبُ يَصفعُها على خَدِها لِتَستَيقِظَ ، هَا قَد فَتَحت عَينيها ، تَنظُرُ حَولها ، تُدَقِقُ في الوجُوهِ ، لَعلها تَرى حَبيبَها ، و لَكِن يا أُمَاه فاتَ الأوانُ ، فإِنَ الذي تَبحثينَ عَنهُ قَد وافَتهُ المَنيةُ ..

لم نُصَدِق مَا سَمِعناهُ مِنَ الطَبِيب ، هَل كَانَ الربُ يُخَفِفُ عَنَا الآلام ليُعطِنا هَذِهِ الحُقنَة القَاتِلَةَ دَفعَةً وَاحِدَةً ؟!! ..

كِدتُ أن أُخَاطِب الآلِهَةَ :

هَل قُلوبُنا لِلتَسَليةِ ، تَهِبُ لِمن تَشَاءُ رَاحَةَ الصَدَرِ ، و تَنزَعُها مِمَن تَشاء؟!، ألا يَكَفي هَذا الفَقرُ الذي يَعيشُ مَعَنا و الذُلُ و المَرَضُ ، و كَذَلِكَ تُرسِلُ لنَا المَوت !! ، أَ تَرَكتَ كُلَ أفرادِ الأُسرَةِ و أخذَت أغلى مَا نَملِكُ؟!، فَلو أخذتَني أنا أ ليسَ هَذا أفضَل !..

و لكَن مِنَ العَيبِ أن أُخَاطِبَ الرَبَّ بِهَذهِ الطَرِيقَةِ ، خَوفاً على مَشَاعِرِ وَالِدي و والِدَتي اللذانِ يَحتَرمانِ الرَبَّ و يُؤمِنانِ بِهِ و بِرحمَتِهِ إيماناً جَازِماً ..

حَمَلنا أُمنا على أكتافِنا،و دُموعُها ما توقَفَت ، حملناها إلى الغُرفَةِ التي فَارَقَ فيها والِدُنا الحَياة ..

كَم نَحنُ ضُعَفاءُ أمَامَ قَرارِ الرَبِّ ..

أَيُعقَلُ بِأَنَّهُ استَراحَ مِن عَناءِ الدُنيا ؟! ، أَيُعقَلُ بِأنَنا لم نَلحَظ عَليهِ آثَارَ التَعبِ؟!، أَيُعقَلُ بِأنَنا نَحنُ سَبَبُ موتِهِ؟! ، و مَن قَالَ ذَلِكَ فَنَحنُ جُزءٌ واحِدٌ لا يَتَجَزأ بانهِيارهِ ..

كَأنَ الرب قَال لَهُ :

يا أبا انطون أُخلُد إلى النَومِ الابدي يَكفيكَ إِرهاقاً و كَدّاً و تَعباً ..

يا عَدرا ما الذي يَحصُل؟ ..

أَيُعقَلُ؟! صَانِعُ التَوابيتِ يُسَجّى في تَابوتٍ ؟؟ ..

لا امانَ على هذا الكوكب ، إِنْ لَمْ تُسلَب عافيَتُكَ سَتُسلَبُ راحَـتُكَ ، فأنتَ تَجمَعُ مِنَ الهَيبَةِ و المَالِ و الجَاهِ لِوقتِ ضَعفِكَ ، وعِندما يَسطو عَلَيكَ المَرضُ و الضَعفُ تُنفِقُ كُلَ مَا جَمعتَهُ على اخِرِ أيامِ عُمرِكَ..

كمْ نحنُ مَساكين .. !!

إلى أينَ نَنجو يا تُرى !؟ ..

إِنَّ الكَواكِبَ التي دَاخِلَ مَجَرَتِنا،و خارِجَها لا تَصلُحُ لِلحَياةِ أبداً، و الحَياةُ التي تَركُلُنا على كَوكَبِنا لا تَصلُحُ لِلرَاحَةِ ، فَمَا عَسَانا فَاعِلين !! ..

تَخَيل بِأن تُودِعَ وَالِدَكَ في الصَباحِ قَبلَ ذَهَابِكَ إِلى مَدرَسـتِكَ ، و تَعُودَ بعدَ ساعاتٍ لِتودِعَهُ إَلى مثواهُ الاخير ! ، مَا هَذهِ المُفَارَقَةُ النِسبيَةُ التي حَشونَا المَها في شَيءٍ أطلقنا عَليهِ :

مَشِيئَةُ الخَالِقِ .. !!

فَبينَ مَشِيئَةِ الخَالِقِ و رَاحَةِ المَخلوقِ ، تَختَفي كَثِيرٌ مِنَ التَسَاؤلاتِ التي يَصعُبُ عليكَ الإجَابَةُ عنها إلا بِشَيءٍ وَاحِدٍ أوكلنَاهُ إِلى الإيمَانِ بِالقَدَرِ خَيرِهِ و شَرِهِ..

إذاً إنَّهُ المَوتُ !!

فَيا أهلاً و سَهلاً بِكَ يا عَزِيزِي ،

كَيفَ جِئتَنا؟! ، جِئتَنا على غيرِ موعِدٍ ، دُستَ عتَبَةَ بيتنا بِلا مَاءٍ و لا زَادِ رحلة ، وَجهُكَ الجَميلُ ، لَيسَ كَمَا قَرأنَاهُ عَنكَ في الكُتُبِ البوليسيَةِ ، لَيسَ كَما شاهدناهُ في أفلامِ الأكشِن ، على مَا يبدو أنَكَ سَعِيدٌ و مُبتَهِجٌ ، هَل أعجَبكَ حُزنُنا يا سَارِقَ الضَحِكَاتِ !! أينَ كُنتَ حَتى طَوى الوَجدُ فِيكَ ابتِهَاجَاً ! ، و كَم مِن رُوحٍ سَبَيتَ حَتى بَانَت نَواجِذُكَ ، و كَم مِن جَسَدٍ تَحتَ التُرابِ سَجّيتَ ! ، هَل هَذِهِ هِيَ مِهنَتُكَ؟, أَيُعقَلُ أن تَكونَ هَذِهِ حِرفَتُك لِتَتَفاخَرَ بِها أمَامَ بَني البَشَرِ؟ و هَل قَطعُ الأَعنَاقِ و تفريقُ الأهلِ و الجَمَاعاتِ تُعَدُ وَظيفَةٌ ذاتُ مَفخَرةٍ؟.

لا علينا ..

تَفَضَل سَيدي الموت ..

المَكَانُ مَكانُك ، و الأرواحُ أرواحُكَ ..

لا تَخلع نَعليكَ أرجوكَ .. فَنَحنُ في ضيافَتِكَ ..
أنتَ المَلِكُ و المَلاكُ ، فَكُلُنا خَائِفونَ و مُفَارِقون ..
لا تَنزَع بَرِيقَ آلاتِكَ ، فَنُحورُ أرواحِنا على حِسابِكَ..
لا تُعرّي عَضَلاتِكَ أمَامَ عُيونِ ضَعفِنا ، فَلا قُدرَةَ لنا على قِواكَ تَفَضل سَيدي إلى غُرفَةِ الضيافَةِ، أو إلى غُرفَةِ الطَعامِ ، أو إلى الصالَةِ أو إلى الحَمَّــامِ ، تَفضَل فَقَد شَرّفتنا و آنستَنا ..
هَل أنتَ فِي عَجَلَةٍ مِن أمرِكَ سَيدي؟.
لم تَشرب شَيئاً ، لِمَن أعددنَا كُلَ هَذِهِ الحَفاوَةِ؟.
أليسَ مِن أجلِ هَيبَتِكَ ؟؟.
حَسناً .. مَا رَأيُكَ بِالقَهوَةِ العَرَبيَةِ،أو التُركيَةِ ، أو الغَربيَةِ ..
و لَكَأن لِسانُ حالِهِ يَقولُ :
لا يَهُم أيَّةُ قَهوَةٍ سَوفَ أشرَبُ، المُهِم هُو المَذَاق.
حَسَناً و مَا المَذَاقُ المُشتَهى؟.

مَذاقُ السَوادِ ، مَذاقُ العَزاءِ، مَذاقُ الحِـدادِ، أُرِيدُ أن تَكونَ الوجُوهُ حَزينَةٌ ، أُريدُ أن أرى القُلوبَ مُنكَسِرَةٌ ، مَا بِكُم صَامِتين؟!، أينَ العَوِيلُ؟ ، أينَ الدُموعُ؟ ، أينَ اللطَمُ و شَقُ الجَيبِ و الثَوبِ ، كيفَ تكونُ هَكذَا الوجُوهُ مُرتَبَةٌ في حضرتي؟!!، لِما هَذا الصَمتُ المُخيفُ؟!!.

اِبكُوا و أسمِعوني نَحيبَـكُم يَعلو و يَعلو حَتى يَبلُغَ الحُلقومَ.

و هَل جَهّزتُمُ الوَدِيعَةَ؟.

يا رَبَّاهُ .. هَل كَانت أرواحُنا إعارَةً ؟، و عِندما ارتَوت مِن حُبِ الدُنيا و فِتنَتَها جِئتَ لِاستردَادِها !.

هَل تُرِيدونَ أن تُحَنِطوا جُثمَانَ وَدِيعتِنا،أم تُريدونَ إحراقَها ، أَمْ تُحبُونَ دَفنهَا ، أَمْ أنتُم مِن عُشَاقِ رَميها في عَرضِ البَحر؟.

أخبِروني مَاذا أنتُم فاعِلين ..

هَل أنتَ على عَجَلَةٍ مِن أمرِكَ يا سَيدّي؟

ضَحِكَ المَوتُ حَتى بَدَت أنيابُهُ :

لا أبَداً, اجابَ, و لكِن قُلتُ في نَفسِي أُريد أن أتَطفَلَ عَليكُم و أُساعِدَكُم على حَلِ لُغزِ جُثمانِ أَبيكُم ..

هَطَلَ الحُزنُ مِن جَدِيدٍ على مَلامِحِنا بينمَا كَان المُوتُ يُمَارِسُ هِوايَةَ الدُعَابَةِ مَعَ مَشاعِرِنا ..

دَعنا و حُزنَنا أيُها المُوتُ ، فَنحنُ في زَحمَةٍ مِن أمرِنا ، سَاعاتٍ قليلةٍ و يبزُغُ الفجرُ ، و لَكِن مَا عَسانا فَاعِلين ! ، هُنَاك كَثِيرٌ مِنَ المَهامِ ، و السُؤالُ الثاني هَل أُمي تَملِكُ المالَ الكافي لإِقامَةِ كُلِ مُستَلزَماتِ الدَفنِ و العَزاءِ؟.

في السَاعَةِ الثَالِثَةِ فجراً ، بِينمَا كَانت الدُموعُ تَتَكِئُ على وجوهِنَا المتعَبَةِ و نَحيبُنا لا يَتوقَفُ عَنِ الهَـديرِ ، و الطَبيبُ يُرَبـِتُ على مَوَاجِعِنا ، دَخَلَ رَاعَي الكَنيسَةِ التي نُقيمُ صَلواتِنا فِيها، النَاسِكُ العابِدُ الأبُ مِيخَائِيل ..

عِندما شَاهَدَنا و نَحنُ نَفتَرِشُ أرضَ المَشفى ، و نَحيبُنا لا يُفَارِقُ صَدى المَمَراتِ ، سَارَ مُسرِعاً إِلى أُمي ..

آآه على أُمي ، فَمَاذا عَسايَ أن أقولَ عَن هَذِهِ المِسكينَةِ ، إِنَّها حَقاً مِنَ الصَنفِ الذي يُشفَقُ عَلَيهِ ، فَما بَالُكَ بِما حلَّ بِها من مصيبةٍ رُبما لَن تَحتَمِلَها أبَداً ..

وَضَعَ أبُونا مِيخَائِيل كَفَّهُ على رأسِ أُمي ..

اِبنَتي اِصبِري ، إَنَّهُ الآنَ سَعيدٌ في السَماءِ ، فأبانا يَسوع لا يَرضَى مِن أبنَائِهِ أَن يَكونوا بِهَذا القَدْرِ مِنَ الضَنكِ و الحُزنِ ، و لا تَنسَي يا بُنَيَتي بِأنَّ زَوجَكِ رَجُلٌ مُؤمِنٌ مُحِبٌ يُحِبُ النَاسَ و الخَيرَ و النَاسُ يُحِبونهُ ، يا بُنَيَتي هَل تُرِيدينَ أن تَعصي أَوامِرَ الله بِاعتِراضِكِ على القَدَرِ ؟.

لا يا بُنَيَتي .. أُنظُري حَولَكِ .. كُلُهُم رِجَال ..

لَقَد تَركَ لَكِ هَؤلاءِ المَلائِكَةِ ، إذاً هُوَ حَولَكِ ، و مَعَكِ ، و الرَبُّ لَنَ يَنسَاكِ و يَسوعُ لَن يَترُكَكِ أبداً ، هَيا مَعي و قِفي على قَدَمَيكِ ، أُرِيدُ التَحدُثَ إلِيكِ بِأمرٍ مَا ..

إنَ من الصَعبِ أنَ تَجِدَ حَكِيمَاً في هَذِهِ القَريَةِ كَهَذا النَاسِك ، فَهُوَ حُلوٌ بِكُلِ شَيءٍ ، بِطَلَتِهِ و بَسمَتِهِ و حِكمَتِهِ و حِنكَتِهِ و حَديثِهِ ، في الجَبَلِ وَحدَهُ يَتَوارى عن أعُينِ الناسِ ، و لَكِن يَأتيهم في أوقَاتِ الشَدائِدِ و المَصَاعِبِ ، لِيُغذيَ الأرواح الهائِمَةَ مِن أَدَبِهِ ، و يروي القُلوبَ مِن حَديثِهِ ، هُوَ النَاصِحُ اللَبِيبُ لِكُلِ مَوجوعٍ ، فَكمْ يَحمِلُ قَلبُهُ مِن حُبٍ و خَيرٍ !! ..

ساعَدَها أبونا على النُهوضِ..

هَيَّا بُنَيَتي قِفي على قَدَمَـيكِ ، إنَّ هَذِهِ الحَالَةَ لا تَليقُ بِأُمٍ سَتُصبِحُ قُدوةً بَعدَ اليومِ ، هَيَّا قِفي على قَدَمَـيكِ..

و رَاحَ يُساعِدُها شَيئاً فَشَيئاً حَتى أَجلَسَها على الكُرسيّ ..

خُذي بُنَيَتي هَذا المِنديلَ ، جَفِفي دُموعَكِ ، غَداً لدينا عَملٌ شاقٌ و يَجِبُ أَن تَتَمالَكِ نَفسَكِ و حُزنَكِ ..

كَانَ دَائِماً يَقولُ لنَا :

لا تَعتَقد بِأَنَكَ سَوفَ تُكسَر ، بَل كُن مُؤمِناً بِدَاخِلِكَ بِأَنَ هُنَاك مَن سَينصُرُكَ و يُضَمِدَ جِراحَكَ و يأخُذُ بيدِكَ لِتَقِفَ مِن جَديدٍ بِقوةٍ أكبر.

الله يا أولادِي :

مَن يَأتيكُم بِقُدسيَةِ الأنقياءِ في أتعَسِ المَراحِلِ التي تَمُرون بِها، يأتيكُم لِيجبُرَ كَسرَ كُم ، لِيوقِفَكُم على اقدامِكُم ، وَحدَهُم الأقوياءُ مَن يَحمِلونَ قُلوباً مُنكَسِرَةً ، خَاضِعَةً خَاشِعَةً لِلربِ و لِلحُبِ و لِلسَلامِ.

كَأَنَّهُ أرَادَ أن يَقولَ لَنا :

إِذا اختفى هذا النوعُ مِنَ البَشَرِ ، فاعلموا بِأنّ الحَياةَ قَد اِنتَهَت .

رُبما بَينَهُ و بينَ المَوتِ صِلَةُ رَحمٍ ، إِنَّهُ في كُلِ يَومٍ يُرَمِمُ و يَصنَعُ بُيوتَ الأَمواتِ ليجني لَنا لُقمَةَ العَيشِ

المُغَمَسَةِ بِالرُعبِ ، و نَحنُ كُنا في غَفلَةٍ عَنِ الحَالِ الذي يَعيشُهُ وَالدُنا.

هَا هُوَ المَوتُ يا أبتَاهُ قَد أتَاكَ ..

ثَلاثُونَ عَامَاً و أنتَ تُقَدِمُ لِضُيوفِ المَوتِ تَوابِيتً لِيُرِيحوا أجسَادَهُم المُحَطَمَةَ مِن أذى الدُنيا و شَقائِها ، فَنحنُ أهَلُكَ و هَا قَد شَعرنَا بِموتِكَ أو لَعَلّها رَاحَتُكَ ، فَمن سَيَصنَعُ لَكَ تَابوتَاً !؟

و لَكَأنَ القَدرَ أجابنا عن كَثيرٍ مِنَ الأَسئِلَةِ!.

فَقبلَ ثَمانيَةِ أعوامٍ مِن مَوتِ أُمِهِ ، و بَعدَ أن اِكتَشَفَ حَقيقَةَ الحَياةِ ، و رأى الوَرَثَةَ كَيفَ يَتَشَاجَرونَ على مُجوهَراتِها ، قَبلَ أن يَصنعوا لَها تَابوتَاً.

أحزَنَهُ المَشهَدُ جِداً.

و صَنَعَ لِجسَدِهِ تَابوتَاً ، حَتى لا يَتكَررَ المَشهَدُ ذَاتُهُ بَعدَ مَوتِهِ .

اِصنَع لِنفسِكَ نوراً بَعدَ مَوتِكَ ..

و لَكِن كَيفَ سَأفعَلُ و أنَا في الدَركِ الأَسفَلِ مِنَ المَوتِ !.

وَحَدَهُ مَن أنَصَفَ نَفسَهُ في حَياتِهِ ، و صَنَعَ لَها مَجدَها بِالخَيرِ و الجِدِ و العَطاءِ ، هُوَ الفَائِزُ الحَقيقيُ بَعدَ المَوتِ ، وَحدَهُمُ الأَغبياءُ الذِينَ اِرتوو مِنَ الأفكَارِ الدَمَويةِ و في أَعناقِهِم أروَاحٌ و دِماءٌ هُم المَخذُوعونَ والخاسِرونَ بَعَدَ المَمَاتِ ..

هَا هُوَ اللَيلُ يَنَحَسِر خَلفَ الفَضَاءِ تَارِكاً مَكاناً لِلنورِ ، و هَا هَيَ النُجومُ تَنَدَثِرُ، مُعلِنَةً نِهايَةً حَزينَةً ..

هَدَأ البُكاءُ ، جَفّتِ الدُموعُ ، صَمَتَ العَويلُ ، و لكِنَّ الأجسَادَ مُتعَبَةٌ ، و الأرواحُ مُتوَرِمَةٌ ، و الأجفانُ جافَةٌ ، و الشِفاهُ مُتَخَبِطَةٌ ،و الأعنَاقُ مُرتَخيَةٌ ، و قُلوبٌ قَد أوت إلى الراحَةِ ..

أَيَةُ رَاحَةٍ هَذِهِ يا تُرَى ..

أمسَكَ الأب مِيخَائِيل يَدَ وَالِدَتي و نَظَرَ إِليها قَائِلاً :

بُنَيَتي .. كانَ زَوجُـكِ رَجُلاً مُحِباً لِلخَيرِ و لِلنَاسِ ، و النَاسُ تُحبُهُ لِذا إنَّ الكَنيسَةَ قَد اِتَـخَـذَت قَراراً عِندما سَمِعَت لَيلَةَ أَمسٍ بِما حَدَثَ لِلرَجُلِ الطَيبِ الذي رَمَمَ الكَنيسَةَ و ساعَدَ النَاسَ بِأَنَ يَرُدوا لَهُ جُزءً مِن مَعروفِهِ ، لِذَلِكَ فَإنَّ مَراسِمَ الجَنازَةِ و القُدّاسِ و الدَفنِ و كُلُ مُتَطلِباتِ العَزاءِ على حِسابِ الكَنيسَةِ و هَذا أَقَلُ شَيءٍ نَفعَلُهُ ..

عَاوَدَت أُمي مُزَاولَةَ البُكَاءِ، وَجّهَت نَظَراتِها إلى الأَرضِ :

أشكُرُكَ يا أبُونا ، لَو لا كُم .. لم أكُن أعلَمُ ما سَـأفعَل.

لا يا بُنَيَتي، هَذا أَقَلُ ما نَفعَلُهُ.

إنَّها الساعَةُ السابِعَةُ صَباحاً.

على بَابِ المَشفى جَمعٌ غَفيرٌ مِنَ الأَقارِبِ و المُحِبـين ، و أصواتٌ نَعَرِفُ أصحابَها و أَصواتٌ نُنكِرُ ناطِقَها، بَعدَ غيابٍ دامَ ما يُقارِبُ الأربَعينَ

دَقيقَةً عادَ أبونا ميخائيل و مَعَهُ المُحنِطينَ و العَامِلينَ في تَجهِيزِ الأَمواتِ ..

هَا هِيَ الثِيابُ تُجَرَدُ ، هَا هِيَ الشُعُور الزَائِدَةُ تُحلَقُ ، هَا هُوَ الماءُ يُسكَبُ على الجَسَدِ المُمَدَدِ ، هَا هُو الزَيتُ يُدهَنُ ، و العُطورُ تُرشُ و البَخورُ يَعِجُ، و تَراتيلُ الإنجيلِ تَتَعالى ، هَا هُو أبي بِحِلَتِهِ الجَميلَةِ ، بِلِباسِهِ الكَلاسيكي المُفَضَلِ ، و رَبطَةِ العُنُقِ الجَميلَةِ ، و بِذَقنِهِ اللّماعَةِ.

صَاحَ المُنَادي أينَ أولادَهُ و زَوجَتُهُ ..

هَرعنا مُسرِعينَ لِتَلتَقِطَ عُيونُنا آخِرَ صُورَةٍ تَـذكَارِيَةٍ لِأبٍ رَحَلَ مِن غَيرِ أن يودِعَنا، فيا أسَفاهُ عَلى حَالِكَ يا أبي ، لِما هَذا الصَمتُ، أينَ طَلَتُكَ البَهيَةُ؟!.

في تَابوتٍ كانَ هُو مَن صَنَعَهُ، مُسَجى ذَلِكَ الحُزنُ البَارِدُ، فَقَد أغمَضوا عَينَيهِ ، لا يُريدونَ أن يَرانا و نَحنُ نَبكِيهِ و نَنَدُبُهُ ، دَخلنا إلَيهِ بِعُدَةِ أحزاننا نَندُبُهُ نَبكَيهِ نَنَوحُهُ نُعَزيهِ نُوَدِعُهُ.

مَا هُو شُعُورُهُ في هَذِهِ اللَحَظَةِ يا تُرى؟.

تُراهُ يَسمَعُ نَحيبَنا في هَذِهِ اللَحَظَةِ؟!.

و مَا تنفَعُ الأمواتُ دُمُوعَ الأحياءِ إِن لَمْ يَعُودوا؟!.

عُودوا فإِنَنا سَنَكونُ لِرُجُوعِكُم أَوفياء ، هُمْ سَمِعُوا حَسيسَنا ، و لَكِنَهُم رأوا بِأَنَ المَوتَ رَاحَةٌ لهُم ، فَمكَثُوا في مَكانِهِم.

رُحنا نُقَبِلُ كُلَ جُزءٍ فِيهِ ، نُغَني لَهُ ما يَهواهُ ، نُنشِدُ مَا كَان يَروقُ لَهُ ، ها هُنَّ عَماتي قد وَصلنَّ مُعزياتٍ باكياتٍ ، رَاحَ الكُلُ يُغني لَهُ :

عالطاحونة ، و شفتك عالطاحونة ..

و جَرَّحوني ، عُيونَك جَرَّحوني ..

كِنت مبارح عالنَبعة القَريبة ..

أنتَ و رَايح شفتَك يا حَبيبي ..

شفتَك سارح بافكار الغريبة ..

زَاغوا عيوني و الدمعة بعيوني ..

نازل نازل ع مفارق الحارة ..

شِفتَك نَازِل و عُيونك مُحتَارة ..

و العواذل من كاس المرارة ..

لوعونِي و بإيدهُن سَقونِي ..

دُورة عالدُورة يا حِلوة يا زَغَيورة ..

بُكرا بتِجي العَصفورة و تَغنيلك شو صاير ..

دافي و مش دافي بكرا حبيبك لافي ..

عَ فِيةِ الصَفصافِة رَح بِتروحوا مشوار ..

مَية عَالِمية لِمن شِفتَك عالمَية ..

و الزَهرة المستَحِية مَزروعَة عَالشَباك ..

و الطَير اللي عَ المَية الطَالع نَازِل يُومِية ..

بِي كَرالنَا ؟؟ الغَنِية و مَا تَسألوا شُو بِك ..

مَعَ النَحيبِ و البُكَاءِ ، نُودِعُهُ مَحمُولاً على الأَكتافِ إِلى كَنيسَةِ القَرِية ، و تَموجُ بِهِ الأكتافُ بِينَ طَبلٍ و زَمرٍ و لكأَنَهُ في عُرسٍ ، إِنَّهُ أبِي الرَجُلُ الطَيبُ ، يَصِلُ جُثمانُهُ إِلى بِدايَةِ القُدَّاسِ ، إِنَّهُ يَومُ الأَحَدِ صَلاةٌ لِلرَبِ و صَلاةٌ لِلرَجُلِ المُؤمِنِ.

رُفِعَ الصَليبُ و فَاحَ البَخُورُ و قُرِعَتِ الأَجراسُ ، و سَكَنَت الأَنفَاسُ و أُهيلَ التُرابُ على الجُثمانِ و رَحَلَ الجَميعُ ،و بَقينا نَنذُبُهُ فَوقَ رُفَاتِهِ.

ها نَحنُ يا أبي ..

اِستَيقِظ .. كَيفَ لِأقدامِنا أَن تَعودَ إِلى البَيتِ كيفَ لِقلوبِنا أَن تَعودَ وَحيدَةً بِدونِكَ ، نَحنُ هُنا يا أبي ، نُرِيدُ مِنكَ أن نَرجِع مَعاً إِلى المَنزِلِ ، لِتَجلِسَ على أريكَتِكَ، و تَتصَفحَ نَشَرتَكَ الإِخباريَةِ ، و تَحتَسي قَهوَتَكَ المَسائيَةَ ..

هَيهات .. هَيهات أن يَسمَعَ نِداءَنا ..

إِنَّها آفَةُ المَوتِ التي لا مَفرَ لِصاحِبِها.

رُحنا مُغَنيينَ حامِلينَ أَوجَاعنا بِتَابوتٍ ، و عُدنا بِخُفي حُنَين ..

أَهَكذا هِي الحياةُ أَيُّهَا الحُزنُ؟!.

أُسبوعٌ كَامِلٌ مِنَ الوقُوفِ على شَفِيرِ العَزاءِ ، نَستَقبِلُ النَاسَ و نُوَدِعَهُم ، حَتى فُكَ العزاءُ ، و رَاحَ

كُلُ واحِدٍ في سَبيلِهِ، و لَمْ يَبقى في البَيتِ سِوانا، جَمعتنا أُمُنا في تِلكَ اللَيلَةِ، و في وَجهِها قِوةُ أُبوَةٍ و حِكمَةُ أُمومَةٍ ، بَدَأتِ الحَدِيثَ :

أبنائي إنَّ الربَّ إختارَ اباكُم إليهِ، و لا اعتِراضَ على اختيارِ الرَبِّ ،و اليوم أصبَحَتِ المُهِمَةُ صَعبَةً جِداً، و يجب أن نَقِفَ على أقدامِنا ، حَتى نُثبِتَ لِوالِـــدِكُم بِأَنَنا سنكونُ بِخَير ، و مِن أجَلِ أن تَكونَ رُوحُهُ في رَاحَةٍ مُطلَقَةٍ.

أنا وشَقيقُكُم الكَبير سَوفَ نَعمل، و أنتُم سَتُكمِلونَ دِراسَتَكُم ، شَقيقُكم سَيَرِثُ مِهنَةَ أبيكُم ، و أنا سَأعمَلُ في مَعمَلِ الخياطَةِ الذي في آخِرِ القَريَةِ حَتى نُساعِدَكُم إلى أَن تَصِلوا لِمُستَقبَلِكُم ..

و بِالفِعل هَذا مَا حَدث ..

كَانَ أَخي الكَبير مُهَيءً لِلالتِحَاقِ بِجامِعَةِ بيروت في قِسمِ الهَنَدَسَةِ المَعلوماتية ، و لَكِنَّهُ تخلى عَنِ الأمرِ ، و فَتَحَ مِنجَرةَ أبِي لِتَصنيعِ التوابيت ، فَلَقَد كَانَ أمراً

شَاقاً عَليهِ ، و لَكِنَّهُ يَملِكُ خِبرَةً سَابِقَةً بِسبَبِ أَنَّهُ كَانَ يَعمَلُ مع أبي في أيامِ العُطَلِ الرَسمِيَةِ.

و أُمِي .. فَيا لَها مِن أُمٍ مِسكينَةٍ.

كَانت تَستَيقِظُ قَبلَنا بَل قَبلَ طُلوعِ الضَوءِ ، و تُعِدُ لنَا الفَطورَ ، و تَحشو حَقائِبَنا المَدرَسِيَةَ بالوَجَباتِ و الشوكولاه ، و تَضَعُ تَحتَ وَسائِدَنا المَصَروفَ اليَومي الذي كُنا نأخُذُهُ مِن وَالِدِنا قَبلَ ذَهابِنا إِلىَ المَدرَسَةِ ، و عِندَما تُرَتِبُ البَيتَ ، تَذهَبُ بِحافِلَةِ المَعَمَلِ قَبلَ أَن نَستَيقِظَ.

يا إلهَي ! .. مَاذَا يَحدُثُ ؟

كُلُ شَيءٍ اِختَلَفَ ، أينَ أبي؟ ، أينَ أُمي؟.

هَؤلاءِ فَقَط هُم الذينَ لا يَنتَظِرونَ مِنكَ شَيئاً سِوى وقُوفِكَ ..

و تَستَمِرُ الحَياةُ..

فَهيَ لَن تَتَوقَف مِن أَجلِ أَحَدٍ..

هَكذا هي الحَياةُ تَركُلُنا بِأقدامِ القَضَاءِ ، تُوقِفُ رُوحَها عِندَ الذِينَ يُريدونَ أن يَموتوا قَبلَ أن يَحينَ نُضُوجُ مَوتِهم، فَالحَياةُ لا تأبَهُ لِأحَدٍ ابداً ، و لا تَلتَفِتُ إلى أحدٍ أبداً ، فَبِكَ و مِن دُونِكَ سَوفَ تَسيرُ وتَمضي..

تَخَيل أن تَسيرَ مِن دُونِكَ ، و تَدَعَكَ في بُؤسِكَ ، تَلطُمُ ظَلامَ حِدَادِكَ ، و تُغرِقُكَ في وَحْلِ عُزلَتِكَ ، و تَحِثُ الحُزنَ على ألمِكَ.. !!

هَل تُرِيدُ أن تَتَوقَفَ عَنِ السَيرِ، هَذا شَأنُكَ..

هَذا ما جَنَيناهُ مِن رُؤيَةِ أُمي و هَي تَزحَفُ بِما تَبقَى مِن قِواها لِنَجدَةِ هَذِهِ العَائِلَةِ المُحَاطَةِ بِاليُتمِ..

نَعم نَحنُ أيتَامٌ .. تُهمَةٌ تَدعو لِلشَفَقَةِ ، و هَي جَريمَةُ القَدَرِ التي اِقتَرفَها بِحقِ فِتيةٍ لَمْ يَبلغُوا حُلُمَ الاِرتِواءِ مِن حَنانِ الأُبوةِ أو رُبما الأُمومَةِ..

هَذِهِ الصِفَةُ التي تُهدِرُ كَرامَةَ المَرءِ ، تُلاحِقُكَ الأعيُنُ بِكُلِ تَطَفُلٍ ، و تُراقِبُكَ مَلامِحُ المُتعاطِفينَ مَع يُتمِكَ بِكُلِ تَوَجُسٍ ، فَأنتَ الآنَ يَتِيمٌ..

و هَذِهِ الصِفَةُ التي تُشعِرُكَ بِالنَقصِ ، تَكَادُ تَسطُو على مَشَاعِرِكَ ، لتُصَابَ بِعُقدَةِ الضَعفِ و استِجلابِ الشَفَقَةِ مِنَ القَريبِ و الغَريبِ..

لَمْ يَعُدِ القَلبُ يَتَحمَل رُؤيَةَ المَشَهدِ اليَومي الذي يأتي بِأُمي في كُلِ مَساءٍ مُتَهاوِيةٌ على أكتافِ الإرهَاقِ و التَعَبِ ، إنَّها تَكَادُ تَموت،و لَكِن كَانَ بِإمكانِها أن تُلقي بِنا في سِردابِ العَمَلِ و المِهَنِ حَتى لا تُجهِدَ نَفسَها..

اذكُرُ عِندَما أتَت ذَاتَ مَسَاءٍ ، و العَرَقُ يَتصَبَبُ مِن جَبينِها، أَلقَت بِشالِها و حَقيبَتِها على الطَاوِلَةِ ، و أَلقَت بِجَسَدِها على أَرِيكَةِ والِدِي ، فَلَقَد كَانَ نَفسُها المُتَثَاقِلُ بِالصُعودِ و الهُبوطِ يُرعِبُنا ، أَسرَعتُ إلىَ المَطبَخِ لِأُحضِرَ كَأساً مِنَ المَاءِ، و ما إن مَلأتُ

الكُوبَ بِالماءِ حتى تَعَالت أَصواتُ البُكَاءِ و النَحيبِ ، فَلَم تَعُد قَدَمَي تَتَمَالَكُ قَلبي ، حَتى اِهتَزَت يَداي و ارتَجَفَت أعصابي و وَقَعَ الكَأسُ مِن بَينِ أصابِعي و انكَسَرَ أَرضاً.

لَمْ آبَه لِلكَأسِ و لا لِذَراتِهِ المُتَناثِرَةِ التي فَرشَت أرضَ المَطبَخِ ، رُحتُ مُسرِعاً نَحوَ الأَريكَةِ ، فَوَجَدتُ أُمي قَد أُغمي عَليها، و لِأنَ الأقدارَ لَها أَجِندَةً دَخَل أَخَي الكَبير إِلى المَنزِلِ عائِداً مِنَ العَمَلِ و مُحمَلاً بِأكياسِ الخُضَارِ و الفَواكِه و مُستَلزَماتِ المَنزِلِ ، فَما كَانَ مِنهُ إلا أن ألقى بِحُمولَتِهِ و اتَجهَ مُسرِعَاً نَحوَ أُمِي رَاحَ يَهُزُ وَجهَها بِكَفِهِ ، و لَكِن دونَ جدوى..

أسرَعَ نَحوَ المَطبَخِ لِيُحضِر مَاءً ، و لَكِنَّهُ تَعَثَرَ بِزُجَاجِ الكَأسِ المَكسُورِ ليَقَعَ على جَنبِهِ الأَيمَن وقد جُرِحَ كَاحِلُهُ ، سَالت الدِماءُ خَلفَ ثِيابِهِ مُتَدَفِقَةً بِلا رَحمَةٍ و لا شَفَقَةٍ ، و لَكِّنَ أَلَمَهُ لَمْ يَمنَعُهُ مِنَ

النُهُوضِ ثانيَةً و اسرَعَ لِجلبِ شَيءٍ مِنَ المَاءِ ، أَغرَقَ أَصَابِعَ يَدِهِ بِإِنَاءِ المَاءِ بِسُرعَةٍ ، و رَاحَ يَرشِقُ قَطَراتِ المَاءِ على وَجهِ أُمي..

يا عَدرا أَنجِدينا .. ماالذي يَحدُثُ؟!

لَمْ تَستَيقِظِ المِسكينَةُ ، إِنَّها مُغمَى عَليها ، شَاخِصَةَ البَصَرِ ، بَارِدَةَ الأَطرافِ ، مُرتَخيَةَ الفَكِّيينِ..

خَرَجَ أَخي مُسرِعاً، دَقائِقٌ مِنَ البُكَاءِ الذي مَلأَ أَجواءَ البَيتِ حَتى عَادَ أَخي وبِرِفقَتِهِ جارُنا الطَبيبُ و زَوجَتُهُ الفَاضِلَةُ ، حاولوا جاهِدينَ اِيقَاظَها و لَكِن لا فائِدة..

حَمَلوا أُمي بِسيارَةِ جارِنا إلى مَشفى القَريَةِ ، و رَكِبنا مَعَهُ جميعنا، حاوَلَ أَخي مَنْعَنا مِنَ الذَهابِ مَعَهُ و لَكِّنَ دُموعُنا شَفَعَت لنَا عِندَهُ..

تَسِيرُ السيارَةُ بِكُلِ سُرعَتِها ،و بِعِنايَةٍ إلَهيَةٍ وصَلَت بِنا إِلىَ المَشفى..

إِنَّهُ المَشفى ثَانيَةً..

بَعدَ أَربَعَةِ أَشهُرٍ على فِراقِهِ عُدنا إِليهِ مُحّمَلينَ بِالوَجعِ مِن جَديد، طَرَّزَت غُيومُ ذَاكَ المَساءِ حُدودَ الاَرضِ بِأَمطارِها الشاحِبَةِ، لَعَّلَهُ الشِتاءُ..

هَل تَكونُ الليلَةُ هَذِهِ هِيَ لَيلَةُ الفِراقِ؟.!

أَيُعقَلُ أَن تُدَّرِعَ هَذِهِ السَنَةُ فَصلَ الخَرِيفِ، لِتستَقبِلَ فَصلَ الشِتَاءِ بِخَيرِهِ و شَرِّهِ بل بِقسوَتِهِ و صَفَعاتِهِ.

هُم وَحدَهُم المُنَعمُونَ بِبحبوحَةِ الزَيتِ و الحَطَبِ قُومٌ مُكرَّمُون في ضِيافَةِ البَردِ و الزَمهَريرِ ، و مَا يُهِمُ ضَمائِرَهُم و خَزَائِنَهُم مَحشُوَةٌ بِالذَهَبِ و الفِضَةِ ، فَباسِتطَاعَتِهم أَن يُحرِقوا مَدينَةً بِأَكمَلِها حَتى لا تَبرُدَ أَطرافُهم..

إِنَّ المُوازَنَةَ التي كَانَت تَقسِمُ ظَهرَ أَبي هِيَ مُوازَنَةُ الشِتَاءِ ، إِنَّ شِتَاءَ لُبنَان قَاتِلٌ ، و كُلُ لُبنَان بِكَفَةٍ و الجَنُوبُ بِكَفَةٍ ، فَنِصفُ ما يُجنى في الفُصولِ الأُخرى كَانَ يُضَعُ في غُرفَةِ الحَطَبِ و مَؤنَةِ الشِتاءِ..

الآن..

رَحَلَ أَبي ، و ذَهَبَ الخَرِيفُ ، و خَزينَةُ الشِتاءِ فَارِغَةٌ مِنَ المَؤنَةِ و الحَطَبِ ، و هَا هيَ أُمي المِسكينَةُ لا نَعلَمُ مَا الذِي حَلَّ بِها..

أُمي..

مَاذا يَجري ، لا زِلنا صِغاراً ، ماذا حَدَثَ لَكِ؟.!

هَا قَد وَصلت سِيارَةُ جَارِنا الذي كَانَ يَحنُو عَلَينا كما كَانَ يُعَامِلُنا والِدي إلى بَوابَةَ المَشفى..

تَسَارَعَت حَماماتُ السَلامِ إِلىَ السيارَةِ ، و وضَعوا وَالِدَتي على نَقَّالَةٍ سَريريَةٍ ، و اسرعوا بِها نَحوَ قِسمِ الطَوارئِ و أغلقَوا أمَامَ دُموعِنا بَوابَتِهم البَيضَاء ، و أَوصَدوا الوِثَاقَ حَتى لا نَدخُلَ إِلَيهم ، سَقَطنا أَرضاً نَندُبُ حَظَّنا، نَبكي قَدَرَنا، نَصرَخُ في وَجهِ يُتمِنا ، أَيَّةُ لَعنَةٍ حَلَّت بِضَعفِنا؟.

إِنَّهُ القَضاءُ ، وَجهٌ آخَرٌ لِلقَدَرِ ، جُندٌ مِن جُنُودِ الآلِهَةِ ، يَأتِيكَ لِيُجَرِدَكَ مِن راحَــتِكَ ، فَلَقَد قَالوا:

بِأنَ القَضَاءَ و القَدر ، مَأمورانِ مِنَ الله بِأَن يَسلُبا جَميعَ مَن حولَـكَ ، لِتَشعُرَ بِهِ وَحَدَهُ ، بِروحِهِ و وَحيهِ و رَحمَتهِ،يُريدُكَ أن تَأنَسَ بِهِ ، تَلجَأ إِليهِ ، تَخضَعُ بَينَ يَدَيهِ ، تَسكُبُ الدَمعَ في كَفَّيهِ..

إِنَّهُ يُحبُكَ عَبداً مُنصاعاً مُنساقاً ،ليكتَمِلَ إِيمَانكَ الذي يَغفو بَينَ جَنبَيكَ ، يُرِيدُ مِنَكَ أَن تَكُونَ كَنَغمَةٍ لا تُعزَفُ إِلا لَهُ، لا تَشذُو إِلا بِهِ ، لا تُحّلِقُ إِلا إِلَيهِ ، لا تَطوفُ إِلا بِمعيَتِهِ ، لا تَنحَني إِلا لِهَيبَتِهِ ..

و لَكِن يا أُمَاهُ إلى أَينَ أَنتِ مُغَادِرَةٌ؟

إِنَّ هَذا البُكَاءَ الذي نَبكيكِ إِياهُ لا يُشبِـعُ سِوى بِداياتِ الشِتاءِ ، كَمْ مِنَ الدُموعِ و النَحَيبِ نَحتاجُ لنَبكِيكِ؟

هَلِ الدُموعُ تُبرِئُ المَرضَى؟ أَو تُحيي المَوتَى؟ أَو تُعيدُ الغَائِبَ، أو تَرُدُ الضَالَ؟ أَو تُرشِدُ السَبيلَ

ماذا نَفعَلُ لِكي نَزِيدَ في العَويلِ

أُمَاهُ اِستَجمِعي قِواكِ مِن أَجَلِ هَذِهِ الدُموعِ ، مِن أَجلِ مَن لَكِ مَعَهُم صِلَةُ يُتمٍ،يا مَن أَقسَمتِ بِأَن تُقَدِمي كُلَ مَا لَدِيكِ لِتَرينا رِجَالاً تَفتَخِرِينَ بِهم .. أرجُوكِ أُمَاهُ.

مَرَت عَلَينا ما يُقَارِبُ الثَلاثِينَ دَقيقَةٍ ..

هَل تَعلَم ما مَعنى أَن تَقِفَ على بِسَاطِ أَعصَابِكَ ثَلاثِينَ دَقِيقَة!.

إِنَّهُ مُوتٌ و لَكِن مِن نَوعٍ آخَر ..

شَيءٌ من صَفعاتِ العَذَابِ الأَنيقَةِ ..

ضَربٌ مِنَ الجُنونِ يُدَاعِبُكَ بِهِ القَدَرُ ..

الكُلُ هُنا يَبكي ، حَتى زَوجَةُ جَارِنا لَمْ تَتَحَمَل دُموعَنا ، فَهي بينَنا لا تَعلَمُ مَاذا سَتَفعَلُ البَتَةَ، تَارَةً تَمسَحُ دُمُوعَنا، و تَارَةً تَقِفُ خَلفَ بِابِ الطَوارىءِ لِتَستقَصي ماذا حَلَّ بِأُمِنا، و تَارَةً تُراقِبُ حُزنَنا لا تَعلَمُ ما الذي سَيحدُثُ لَنا.

هُنا و في مِضمارِ المَشافي و دُورِ الصِحَةِ ، كُلُ الخَياراتِ مَطروحَةٌ ، لَعَلكَ تَأتي مُعَافاً و تَخرُجُ مُعَاقَاً، لَعلكَ تَأتي مَاشياً على الأَقدَامِ و تَخرُجُ مُحمَّلاً على الأكتَافِ

و رُبَّما تَدخُلُها مُغمى عَلِيكَ و تَخرُجُ بَصَيراً مُعافَاً آمِناً سَليمَاً ..

الكُلُ يُراقِبُ البابَ الذي سُدَّ في وجوهِنا، و كَأنَ ما خَلفَ البَابِ هُوَ قَدَرُنا، و مَعَ ذَلِكَ كُلِهِ هُوَ قَدَرُنا فِعلاً إِنَّها أُمي يا قَوم ..

ثَلاثونَ دَقيقَةٍ،و كَأَنَّها ثَلاثونَ سَنَة ، كِدتُ أقولُ لِمَوارِب البَابِ :

أرجُوكَ أَشفِقْ على دُموعِنا، فَلنا خَلفَ بَوابَتِكَ رُوحاً هَيَ أغلى مِن أَرواحِنا ، أرجُوكَ أُنظُر إِلى مَواجِعِنا، فَإِنَّ صَبرنا يَكادُ يَنفَذُ ..

خَرجَ طَبيبُ الطَوارئِ ، مُبَللاً بِالانكِسَارِ ، الوَجهُ الذي دَخَلَ بِهِ لَيسَ كَالمَلامِحِ التي خَرجَ بِها ، خَلَعَ قُفَازَيهِ المَطاطيين، ناظِراً إِلى الأَرضِ ، قَائِلاً بِصوتٍ مُنخَفِضٍ :

أينَ زَوجُها ؟

تَدَّخَل جَارُنَا الطِيب :

لَقَد تُوفيَّ قَبلَ أَربَعَةِ أَشهُرٍ ..

ضَربَ الطَبيبُ كَفَّهُ بِكَفِهِ الأُخرى قَائِلاً :

إِنَّ مريضَتَكُم مُصَابَةٌ بِجلطَةٍ دِماغيَةٍ ، و أَتمنَى أن تَنجو من هَذِهِ اللعَنَةِ التي حَلَّت بِها، و لا أُخفيكُم سِراً إِنَّ حَالَتَها خَطَيرَةٌ جِداً،و لو أنكُم تَأخرتُم قَلِيلاً لَفَقدت حَياتَها، فَلَقَد نَقلناها إِلى العِنَايَةِ المُركَزَةِ ..

صرخنا بِكُلِ وجعِنا،حَتى كَادَ أن يُغمَى عَلينا ..

يا عدرا ما الذي يَجري؟!.

هَلِ المُوتُ بَينَهُ و بَيننا ثَأرٌ قَدِيم؟

أَمْ أَنَّهُ مُوسِمُ حَصَادِ الأرواحِ، و التِهامِ الأَجسَادِ ، أَمْ أَنَّها مَزحَةٌ و دَغدَغَةٌ مِنَ السَماءِ لِيَزِيدَ البُكَاءُ فينا؟

يا عَدرا صَلّي لأَجلِنا عِندَ الله ..

مشينا متحاملين على مصابِنا ، حَتى وَصلَ بِنا السُلَمُ الرُخَاميُ لِلطَابِقِ الثَالثِ في قِسمِ العِنَايَةِ المُركَزَةِ ..

إِنَّهُ ذاتُ المكان، وذاتُ السيناريو السابق ، المَشَهد القَاسي الذي يأبى أن يُفَارِقَ الذَاكِرة ، الجُدرانِ و الحَواجِزُ الزُجَاجيَةُ و الأَسِرَةُ التي يَقطُنُها أُناسٌ حَياتُهم مُعلقَةٌ بِينَ السَمَاءِ و المَوتِ ، و كَراسِي حَديدية للزُوارِ و المُراجِعينَ ..

هَل هُوَ المَوتُ مُجدَدًا ، فَلا مَأمَنَ لِغدرِ الموتِ و هَفواتِهِ ..

نَدنُو مِنَ الحَاجزِ الزُجَاجي الذي يَفصِلُ وَجعَنا عن وجَعِنا الآخَر ، كَم هُوَ المَشهَد مُؤلِمٌ بِكُلِ تَفَاصيلِهِ ،

سَيدَةٌ أربَعينيَةٌ لَمْ تُحَالِفُها الحَياةُ بِأن تَكونَ كَأي سَيدَةٍ ، فَبينَ ضَنكٍ و فَقرٍ ، و بينَ شُحٍ و ضَعفٍ ، و بينِ مَدٍ و جَزرٍ ، رُبَّما أَنَّها عَاشَت حُبها و لَكن لَمْ تَعِش حَياتَها، سَيدَةٌ فَتَحَت لَها الحَياةُ أبوابَ العَوزِ و القِلّةِ عَاشَت بِحُبِها عَزيزَةً كَرِيمَةً ذاتَ سُمعَةٍ حَسَنَةٍ,

فَمَن تَكونُ هَذِهِ السَيدَةُ الفَاضِلَةُ؟

إِنَّهَا أُمي يا سَادة ..

بينَنا و بِينَها مِيثَاقُ الحَنَانِ ، و الخُلودِ في الأرحَامِ ، و لَيلَةُ المَجيءِ إِلى هَذِهِ الدُنِيا ،و أيامٍ في السَهَرِ و الجِدِ و التَعَبِ ، و ذَاكِرةٌ مُمتَلِئَةٌ بِصورٍ لَن تَغِيبَ ..

رَمى بِها الزَمَانُ قَبلَ أن نَكبُرَ على ضِفَافِ الألَمِ و الفَقدِ ، و رَمَى بِنا أيضاً يُتِّمنا على كاهِلِها، لمْ يَعُد هَذا الكَاهِلُ قادِراً على الصَبرِ و التَحمُلِ، فَمَا كَانَ مِنهُ إِلا أنِ اِنهارَ ..

اِنهارَت أَمَامَ أَعيُنِنا ، لمْ تَدع لَنا فُرصَةً لنُخبِرها بِأَنَنا سَنكُبر ، و نَنجَحُ في دِراسَتِنا، و نَتَسَلَقُ على جُدرانِ

المُستَقْبَلِ رُغمَ ضَعفِنا و قَساوَةِ دُنيانا التي وُجِدنا فِيها بِلا تَأشِيرَةِ دُخُول ، أَردنا أَن نَقولَ :

نَحنُ سَنكبُرُ لِنكونَ كَما أردتِ لنا أن نكون ، نَحنُ نَعلَمُ بِأَننا لَنْ نَستَطيعَ أن نَرُدَ شيئاً مِن فضلِكِ، و لَكن نُرِيدُ لِشَيبِ رأسِكِ أن يَحيا كَريماً عَزيزاً ،أردنا أن نَقولَ لَها :

أُمَّاهُ إلى أَين؟.

كُنتِ تَحلُمينَ كيفَ سَنكُبرُ ،كنتِ تَحلُمينَ بذاكَ اليَومِ الذي تَنثُرينَ فيهِ الوَردَ و الأرُزَ بِمُناسَبَةِ تَخرُجِنا، وكم حَلُمتِ بِفَرحَةِ زَفافِنا، اللحَظَةَ التي سَتحمِلين بِها أولَ مَولودٍ لنا، كنتِ تحلُمينَ بِضمِ أحفَادِكِ ، هَل خُنتِ العَهدَ و المِيثَاقَ يا خَليلَةَ الفُؤادِ؟

امرأةٌ اِنحنَت لِلألَمِ ، لَمْ تَستَطِع مُقاوَمَةَ الغَّصَةِ التي في قلبِها، أجهَدها التَفكيرُ المُتَواصِلُ، و أرهَقَها التَكتِيك، فَمَا كَانَ مِنها إلا و أَن رَكَعَت لِجَلطَةٍ دِماغيَةٍ رُبّما تُفقِدُها حياتَها ..

نَنظُر إليها مِن خَلفِ السَرابِ ، و مَانِعٍ زُجَاجيٍ يَمنَعُنا أَن نَلمِسَ جِلدَها، نُقَبِلُ كَفَّيها، نَضَعُ خَدَّنا تَحتَ قَدَمَيها ، نَائِمَةٌ تَحتَ تَخديرِ القَدَرِ ، و قَد غَرِقَت المِسكينَةُ في سُباتٍ عَميقٍ ، شَعرُها الذي أَصابَهُ مَسٌ أَبَيضٌ مُنتَثِرٌ لِلضَبابِ على وِسادَةٍ مَطويَةٍ لِلفِراقِ ، و عَينانِ تُفَتِّشانِ عَن حَبيبٍ فارَقَها بِالأَمسِ ، و ثَوبٍ قَد بُدِّلَ لِلراحَةِ ..

أَيَّةُ راحَةٍ هَذِهِ التي يَتَحَدَثونَ عَنها ..

هَل أَضحَتِ المَشافي مَكَاناً لِلرَاحَةِ؟.

إِنَّهُ مَوسِمُ الوَداعِ ، إِنَّهُ فَصلُ الصِراعِ ، أُريدُ البُكاءَ ، أُريدُ أن يَنتَهي هَذا البَلاءُ ، أيُعقَلُ أن تَتَحمَلَ قُلوبُنا الصَغَيرَةُ هَذا العَناء؟.

الصَوتُ ذَاتَهُ يَعزِفُ لِلمَوتِ مُوسِيقاهُ الرقراقةُ ..

تُووووت .. تُووووت .. تُووووت ..

إِنَّها آلَةُ الاِحتِضارِ ، إِنَّهَا سِمفونيَةُ مَا قَبلَ الزَوالِ ، شُعورٌ غَريبٌ يُصَادِفُكَ عِندَ مُعتَركِ الهُدوءِ ، و

اِنسِجَامٌ تَامٌ يُعِدُ لَك كُوباً مِنَ الفَزَعِ ، و زَوابعٌ تَهُبُ بَينَ أركَانِ انكِسارِكَ ، و تُحَدِثُكَ قَائِلَةً :

اِجلس سَيدي على كُرسي المَسَافَاتِ التي سَتفنَى ، هُوَ الموتُ اتَاكُم زاحِفاً زائِراً بِكُلِ فَزَعَهِ ، فَمِنَ الطَبيعي أَن يودِعَــكُم و هُوَ مُحَمَّلٌ بِالهَدايا، لا و كَلَّا.

لَيسَ أيَةُ هَدايا يَحمِلُها. إنَّهُ لا يَرحَلُ إلا و شَرابُهُ أَحَبُ الأرواحِ لَدَيكُم ، و طَعامُهُ أَطهَرُ الأَجسادِ لَدى قُلوبِكُم ، يَنتَقي أَجمَلَ اللَحَظاتِ ، و أَروعَ الصُورِ ، و أَصدَقَ الأفئِدَةِ ، و يَحمِلُها على رِحالِهِ ، و يَترُكَ لَكُم وَداعاً مُؤَثِثاً بِالدُموعِ و العَويلِ ، لا يُحِبُ الرَقصَ و الغِناءَ خَلفَ خَواتِهِ ،و لا البَهجَةِ و السَعادَةِ أَمَامَ نَظَراتِهِ ، إَنَّهُ فَزاعَةُ الهَلَعِ المُرعِبَةِ التي لا تُضاهيها أيَّةُ لَحظَةٍ.

هَا هُوَ الوَقتُ يَطوي خَطواتِهِ على مَرأى مِن تِلكَ الأُنثَى..أُمي ..

لَمْ نَعُد نَعلَمُ مَن سَيَصمُدُ أمَامَ هَذا الكَمِ المُعَفَرِ بِالمَخاضِ الذي تَسَللَ إلى عائِلَتي كدودِ السُوسِ عِندما يَتَسَرَبُ إلى الخَشَبِ ، و ما يَنفَعُ الوَقتُ إن أقبَلَ أو أدبَرَ، و سَيدَةُ الوَقتِ في غَيبوبَةٍ تَحتَ تَأثيرِ المُنبِهِ السَماوي ، فلعلنا لا نَعرِفُ ما يَجولُ في حَصافَةِ السَماء و ما تَحمِلهُ مِن أَقدارٍ ، و هَل سَتَحِلُ عَلينا هَذِهِ الأَسبابُ و المُسَبِباتُ كَوافٍ لِيطمَئِنَ على سَيدَةِ الشَهَقاتِ التي تَأبى أن تَتَوقَف، أم سَتأتي بِصورَةِ حَاصِدٍ لِلأرواحِ ، قَابِضَاً لِلأنفُسِ ، دَاثِراً لِلأجسَادِ في جَحَاشِرِ الُلحُودِ و الدُودِ ! ..

و مَن منا يَعلَمُ مَا كَانَ و ما سَيكون !!

الوَقتُ قُطِعَ مِنهُ ساعَةٌ و عِشرينَ دَقيقة ، و قَطَعَ مِنا مَسافَةُ رُعبٍ سَيراً على الأوهَامِ ، كَان الأملُ بِأنَّ العِنَايَةَ الرَبانية سَتُنقِذُ سَيدَةَ الأحلامِ المُخَثَرَةِ في إناءِ

الأُمنيات ، كَانَ اليَقينُ أكبر بِكَثيرٍ مِنَ أن تُخمِدَ تِلكَ النَزَعَاتِ ، و يَعودُ الأُوكسيجين إلى سَواقِيهِ مِن غَيرِ مُعداتٍ طِبية و لا آلاتٍ بَشَرِيَةٍ ، كَانَ الغَالبُ في تَدَاخُمِ الحَالَةِ الصِحية مَعَ جَسَدِ سَيدةِ الوَقوفِ على مُنعَطَفِ الرَحِيلِ و البَقاء بِأن تَعودَ لَنَا مُحمَّلَةً بِالعافيَةِ ..

و لَكِن هَذِهِ المَرة تَخَلَت عَنها الذَاكِرة ، لم تُدرِكها حَواسُها ، لم تُسعِفُها قِواها ، لمْ تُجدِهَا رُوحُها ، لَمْ تُنقِذُها نَفسُها ، فَفِي حَالَةِ النِزَاعِ كُلُ شَيءٍ يَتخَلى عَنكَ ، فأنتَ و على هَذا المُنحَدَر المُتَوَعِر كُلُ شَيءٍ يَتخَلى عَنكَ ، حَتى أقَربُ النَاسِ إليكَ ، إن لم يَكونُوا مِن أهلِ الإختِصاص فَستندَثِرُ بِلا عَودة ..

أنتَ بِحَاجةٍ إلى مَقاييسِ العَودَةِ إلى ما قَبلَ الحَدِ الفَاصِلِ بين مَرحَلَةِ الخَطَرِ و مَا قَبلَهُ مِنَ الإستِكَانَةِ ، فَلن تَنفعَكَ أموالُكَ و لا أحَلامُكَ و لا أهدَافُكَ و لا

إنجَازَتُكَ و لا حَتى أولادُكَ أمَامَ اِستِفحالِ النِزاعِ و سَكَراتِهِ ..

سَتَشُعرُ بِمَن حَولكَ و أصواتُ ضَوضَاءٍ هُنا و هُناك يُدوي بِأعلى أَلَمِهِ :

أينَ حَدَّائِي الأرواح, أينَ عَارِضي العَافِية، أينَ بائِعي الشِفاء ! ، أينَ قِديسوا السَلامَة ! ..

الكُلُ حَولكَ مَشغولٌ بِكَ ، و أنتَ وَحدَكَ مشغولٌ مَعَ المَوتِ ، و لكَ في مَشهَدِ الصِراع الذِي تَخوضُ جولاتَهُ مَعَ الحَياةِ أُسوَةٌ حَسنَةٌ ، فَأنتَ المُعلَقُ على مَذبَحِ السَماءِ ، فَلا تَعلم لِمن سَتُحسَمُ القَضِيَةُ لِلنَجَاةِ أم لِلهَلاكِ؟.

سَتَتَحلَلُ حِينئذ ، كُلُ مَا فِيك سَيعودُ إلى مَسكَنِهِ الأصلي ، فَنحنُ كَمخلوقاتٍ ضَعيفَةٍ لا نَعلَمُ سِوى مَسكَنَينِ على هَذِهِ الأَرضِ ، مَسكنٌ لِلحَياةِ و هُوَ المَأوى الذِي يُدعَى الوَطن و القَضية و الحَمية و القَبَلية و العَاداتِ و التَقالِيد ، و أما ما بَعدَ تَعَطُلِ

حَركَةِ الجَسَدِ بِشهيقيهِ و زَفَيرهِ فللتُرابِ مَكَانُهُ ، هُنَاكَ اللُحُودُ و الدُودُ ، سَتَنهَشُ و تَفنى و تتحول إلى بُخَارٍ بِلا وَطنٍ و لا قَضِيةٍ و لا قَومِيةٍ ..

بِالأَمسِ كُنتَ هُنا ، لكَ مَقَرُكَ و مُستَقَرُكَ ، لَكَ رِفعَتُك و رُبَّما سُقُوطُكَ ، لَكَ حِكمَـتُكَ و حِنكَتُكَ أو جَهَلِكَ و رُعُونَتِكَ ..

مَن تَكونُ أَنت يا هَذَا !! ..

أَنتَ أتيتَ مِن لا شَيء ، و عِشتَ مِن أجَلِ شَيءٍ ، و لَكِن رَحلتَ إلى اللاشَيء ، كَم أَنت ذُرَةٌ لا قيمة لها في هَذِهِ المَجَرة ..

أخبرنِي بِحَقِ السَماء بِكُلِ صِدقٍ ..

لِما هَذا الظُلم الذِي يُحِيطُ بِقَلبِكَ, لما تُقَاتِلُ أو تُقتَلُ مِن أجلِ مَاذا و لِأَجلِ مَن؟

مِن أَجلِ البَقاءِ إذاً تَباً لكَ و لِبقائِكَ ، و مَا يَنفَعُ هَذا الكون بَقاؤكَ إن كُنتَ عَالَةً عَليهِ بِظُلمِكَ و جَراثيمِكَ و آلافِ البكتريا التي يُطلِقُها جَسَدُكَ كُلُ بُرهَةً فَجرٌ

، و هل سَيُخَلِدُكَ البَقاءُ يا سَيدَ المَجدِ و الهَيبَةِ الرَصِينَةِ !! ..

لَن تُجدِي عجرَفَتُكَ نَفعاً ..

لن تَدحَرَ قُذُارتُكَ مَوتاً ..

فَأنتَ و حُبُكَ و بُغضُكَ إلى الفَناءِ ..

إستمتِع بِأحلامِكَ و أوهَامِكَ في ظُلمَاتِ قَبرِكَ ..

و لكَن اليَوم لَيسَ نَحنُ مَن يَرحَل ..

إنَّ تِلكَ الأُنثَى التي تَتَوسَدُ أَسِرَةَ المَنونِ هِيَ مَن تُعِدُ رُوحها في حَقائِبِ المَوتِ لِلرَحِيلِ ، أنَا مُتَأكِدٌ بِأنَ الأمَانَةَ التي وَقَعَت على كاهِلِها قَد أتعَبَتها :

وَ هَل نَحنُ مُتعَبونَ إلى هَذا الشَفِير مِنَ المُنتَهى؟

المُنتَهى أن تَدعَ كُلَ مَا تُحِبُهُ خَلفَكَ و تَحمِلَ أَمتِعَةَ ذَاكِرتِكَ و تُغَادِرَ حَياتَكَ ..

إنَّ فِراقَ الرَوحِ لِلجَسَدِ ، كَفِراقِ الحُبِ لِلقَلبِ ، هَل تَألَمتَ يَوماً بِأن تُفَارِقَ قَلبُكَ الحَياة؟ أو يُفارِق قلبُكَ مَن يُحِبُ أيتُها العَاشِقَةُ و الفَارِسُ المُغرَمُ.

إنَ الحُبَ يا سَادة لَيسَ مُعَادلَةً لِيخُوضَ بِها المَرءُ تَجارِبَهُ القَلبيَةَ ، إنَ الحُبَ كَالمَوتِ في قُدومِهِ و كالسَيفِ الذِي يَقطَعُ الأعنَاقَ في هَلاكِهِ .. إنَ الحُبَ هُوَ المَحلولُ الأسمَى الذي عَجزَ العُلمَاءُ لِلإقدَامِ على تَحليلِهِ ، فَهوَ حَالَةُ إعجابٍ في بِدايَةِ أَيَةِ مَرحَلَةٍ عَاطِفيَةٍ ، أو أنَّهَا حالَةُ إنصافٍ و شَغَفٍ بِأن تَكونَ أفضَلَ مَن أحبكَ .. كَأبوِيكَ مَثلاً ..

وَحدَهُم الآباءُ و الأُمهاتُ مَن يُحِبون لَك مَا لا يُحبونَ لِأَنفُسِهم، إنَّهَا الحَالَةُ الفَرِيدَةُ مِن نَوعِها في الصِدقِ و الإخلاصِ ، حَتى و لو كُنتَ في أسوأ حَالتِكَ ، فَأبوَيكَ وَحدهُم البَقيةُ المُتَبقيَةُ المُستَعِدونَ أن يُضَحوا بِأرواحِهم لِبقائِكَ و صُمودِكَ ..

أذكُرُ كَثيراً مِنَ القِصَصِ كَيفَ قَدَّم آباءٌ عَافِيَتَهُم مُقَابِل أن يَبقَى الأبنَاءُ ، و مَا إن أشتَدَ عودُ ذَلكَ الإبنِ حَتى أنكَر مَا قُدِمَ لهُ ..

فَمَا أقسَاهُم مِن أبنَاء ، و مَا أليَنَهُم مِن آباء ..

و إن لم تُصَدِق عَلَيكَ بِأقرَبِ مَأوى لِلعَجَزَةِ فَسوفَ تَرى العَجب العُجَاب ، لا تَسمع الكَلمَات ، لَن تَكون رِواياتٌ تُكتَبُ تَحتَ صَفعاتِ المَطَابِعِ ، بَل إِنَّهَا آلامٌ تُطبَعُ تَحتَ لَطمَاتِ الدِمَاءِ ..

مَا أقسَى أن تُقَدِم أغلى مَا لَدَيكَ لِفَلذَةِ كَبِدِكَ ، و الذِي يَنصبُّ مِن صُلبِكَ ، و مِن ثُمَ يُلقَى بِكَ على قَارعَةِ الإِهمَالِ ..

مِن أجلِ مَن يُفعَلُ بِالآباءِ هَذا العُقوقُ؟.

المَظَاهِرُ أعمَت هَذا الجِيل ، هُم مَع فَصِيلَةِ التَنَاسي، مَعَ رَهطِ التَجَاهُلِ ، مَعَ زُمرَةِ العُصَاةِ ، مَعَ عُصبَةِ العُقوقِ ..

الوَقائِعُ و مُجرياتُ الأُمورِ و الأَحدَاثِ و مُؤشِراتُ القِصَصِ التي يَتَقاطَرُ مِنَها العُقُوقُ لا تُعَدُ و لا تُحصَى ، و أكبَرُ العُقوقِ بِالنِسبَةِ لي أن يخجَلَ الابنُ بأبوَيهِ وأن لا يفتَخِرَ بِهم ..

مَاذا قَدَّمتَ ! ..

السُؤالُ الذي يَتبادَرُ لِذِهنِكَ،عِندما تَشتَدُ مَشانِقُ المَوتِ على خِنَاقِ مَن كَانوا سَبَباً لِوجُودِكَ على هَذِهِ الحَياةِ ، سُؤالٌ واحِدٌ ، مَاذَا قَدَّمتَ لهُم !! ..

طَبعاً المُعادلة الحَقِيقِية هِي :

أن ، لا شَيء !!

لَو حَرقتَ ذَاتَكَ ، و سَحقتَها، و نَثرتَها في يَومٍ عَاصِفٍ ، تَقرُباً لأَبويكَ ، ما أوفِتَهُم حَقَّهُم أبداً ، لِأنَكَ لن تُصَدِقَ كَم لَهُم مِنَ الدُيونِ عَليكَ ، أكبَرُ حَقٍ لَهُما هُوَ حَقُ وجُودِكَ ، و أصغرُ حَقٍ هُوَ صِدقُ مَشَاعِرِهمَا تِجَاهَكَ ، كُلُ العَالَمِ حَولكَ يَكذِبُ ، و حَتى زَوجُكَ و اِبنُكَ ، وَحدَهُم مَن جَدَّ و كَدَّ لِراحَتِكَ و تَوفِيرِ الأمَانِ لكَ ..

هَل تُريدُ أن تَنسى .. هَذا شأنُ ضَمِيرك ..

أُبَشِرُكَ بِأنَّ الضَمائِر يَبدأُ أولُ سُقوطٍ لَها عِندَما تَصرَخُ بِوجهِ أباكَ أو أُمِكَ ، هُنَا تَكونُ البِدايَةُ ، و أما النِهايَةُ فما أقساها ..

دَائِماً كُنتُ و لا زِلتُ أُعَوِلُ بِأيِّ حَدَثٍ يَصُبُ في مُستَنقَعِ العُقُوقِ هِيَ النِهاية ، في الخِتامِ يأتي دَورُ العَدلِ بِينَ الآَباءِ و الأَبناءِ ، و إِن عَقَّكَ ابنُكَ في أمرٍ ما ، ضَربَكَ أو أَهَانَك أو جَرحَ مَشَاعِرك ، فَعَلِيكَ بِالعَودَةِ إِلى المَاضي ، نَقِّب جَيداً في تَفاصِيلِهِ ، لا تَتَغَابى أمامَ البُوصَلَةِ الزَمَنية لِلعَدلِ ، أُنظُر في المشاهِد و السِناريوهات التي صَنَعتَها مَع أبوِيكَ ..

لا تَضحَك ، بَل سَتندَمُ كَثيراً ..

اِضحَك قَليلاً ، و سَتَبكي كَثيراً ..

إِنَّ الوَقتَ الذِي يَجري في مَيدانِ المَوتِ و الحَياةِ ، لا أعلَمُ لِصَالحِ مَن يَجري ؟ ..

أهُوَ يجري ، أم لا؟ أم يُداعِبُنا ، أَظُنُ بِأَنَّ الوَقتَ لَيسَ لَهُ أَيُ دورٍ في عَودةِ أُمي إلى وَعيها ، و لكَننَا دَائِماً نُلقِ اللومَ على الوَقتِ ، مَعَ أَنَّ الوَقت بِكَ أو بِدونِكَ هُوَ مَاضٍ مَاضٍ ..

السَاعَةُ الواحِدَةُ لَيلاً ..

لَمْ يَتوقَف هُطولُ المَطَرِ ، ما أقساهُ مِن فَصلٍ ..

كُلُ الأَعيُنِ و القُلوبِ و الحَواسِ مُتشَبِثَةٌ بِالحاجِزِ الزُجَاجِي الذِي يَحجِزُ والِدَتُنا خلفَهُ

صَدرُها ، كَم نَحنُ بِشوقٍ لَهُ ..

لَمْ نَعُد نُصَدِّقُ بِأنَ القَلبَ يَخفِقُ بِإرادَتِهِ ، فَلولا آلَةُ الأوكسيجين ، و الخَراطيم التي يَصعُبُ على العَينِ عَدُها ، ما وَصَلَ الهَواءُ إلى مَكَمنِ جَسدِها ، إنَّها هَي ..

نَعم هِي ..

أنتَ مِنها ، مُشتَعِلٌ بِها ، تَحبو على بَقائِها ، تَكبَرُ أمامَ أحلامِها ، فَلَم يَبقى لَها حُلمٌ سِواكَ ، تَجني

ثِمارَكَ مِن تَعبِها ، فَأنتَ ثَمرَتُها التي تَنضُجُ شَيئاً فَشيئاً في بُستانِ عَواطِفِها ، تِلكَ هي أُمُكَ...

أَمامَك هي ، تَراها بِثوبٍ لَيسَ ثَوبَها ، و وَجهٍ شَيَّعَهُ التَعبُ ، و مَلامحٌ هَزَها الوَداعُ ، كُلُ شَيءٍ بِهَا ساكِنٌ لا يَتحَركُ بِإرادَتِهِ ، قَد تَوقَفَ رُغمَ مَدِهِ و جَزرِهِ ، و دُموعٌ تَسيلُ بِلا إذنٍ و لا مِيعادٍ ،لن تَعرِفَ مَاذَا يَدورُ الآن في ذِهنِها! ..

هَل تُراهَا تَرانَا ! ، هَل تَتَألم كَما نَتَألم ! ..

و لمَا نَقِفُ هَكَذا ! ..

هَل بِوقوفنِا سَتَتَعَافى؟! ، لَيسَ هَذَا مَا تَفقَهُهُ المَشَاعِرُ ، إنَّهَا الصِلَةُ الصَادِقَةُ بِينَ الدَّمِ و الرَحِمِ ، و الطَاقَةِ الثَالُوثِيَةِ بِينَ الرَبِّ و الأُممَّ و الأبنَاءِ ..

نَقِفُ بِضَعفِنا أمَامَ عَظَمَتِهِ ، لِنرفَعَ قَرابينَ فَاقَتِنا إلَيهِ ، و مِن ثُمَّ تَنهَمِرُ العِنايَةُ الرَبانيَةُ على الثَالوثِ الثَالثِ الذي لا حَولَ لَهُ و لا قُوة إلا بالثَالوثِ الأولِ

، و إنَ نَجى المُبتَلى فَالذِي كَانَ سَبَباً في رَفعِ الحَاجَةِ فَستَتَلاشَى مِن قَلبِهِ الهُموم ..

و القَضَية لَيسَت بَالدَاعي أو المَدعو مِن أَجلِهِ و لا حَتى بِصِدقِ الدَعوَةِ ، بَل إنَّها مُعلَقَةٌ بِالقضاءِ و القَدَرِ المَحسومِ مِن قِبَلِ الرَبَّ و حِكمَتِهِ ..

كُلُنا نَعودُ إلى كَينُونَتِنا عِندما يَهطِلُ عَلينا أمرٌ ما ، أو ضَعفٌ ما ، نَتَشَبَثُ بِالحَقيقَةِ تارَةً و بالخُرافاتِ تَارةً أُخرى ، كَغَريقٍ مُعلَقٍ بِقَشَةٍ ، و ما تُجدي نَفعاً القَشَةُ و غَريقَتُنا لا زالت تَحتَ قَبضَةِ الخَطَرِ !! ..

هَذِهِ اللَحظَةُ مَررنا بِها آنِفاً ..

كَانَ أبي هُنا ، و الآن ما بَقي مِن أَحلامِنا و أَحمالِنا..

إنَّهُ الحِملُ الأكبرُ في حَياةِ أَيَّةِ أُسرَةٍ ، فَإن رَحَلتَ فَالكُلُ إلى ضَياعٍ لا بُدَّ مِنهُ ، و بِينما كُنتُ أرعى بِخَيالي أو رُبَّما خَيالي يَسرَحُ بِي ..

أرخَتِ الحَياةُ قبضَتها عن تِلكَ التِي طَوت جِراحَها خَلفَ حُدُودِ الزُجَاجِ ، و كَانَ الفَائِزُ في هَذِهِ الغَزوَةِ قَبضَةُ المَوتِ التي أَبَت أَن تُفلِتَ أَصابِعها عن نَحرِ أُمّي ، يا رَبّاهُ ما أقساها مِن قَبضَةٍ ، و ما أَعسَرَهُ مِن مَخَاضٍ ، المَخاضُ الأَقسَى بينَ فَكَّيِ الحَياةِ و المَوتِ ..

تَوقَفَت نَظَراتُنا على مَشهَدٍ يَصعُبُ على الذَاكِرَةِ مَحوَهُ ، و مَكثَت شَهقاتُنا على تَعَطُلِ النَبضِ و كَفَكَفت مَشَاعِرُنا ثَوبَ اللُجوءِ إلى الرَبِّ لِتأخُذَ دَورَ الحِدادِ ، و ما إن قَرعَ الموتُ أَجراسَ قِيامَةِ الرُوحِ إلى الرَبَّ ، حَتى تَسارعَ الأَطِباءُ إلى غُرفَةِ العِنايَةِ المُرَكَزَةِ ، أرخُوا السَتَائِر بِسرعَةِ اللَّهفَةِ ، و تَركوا دَوي عَويلِنا لِلمَمَراتِ و نَظَراتِ المُراجِعينَ ..

إِنَّهُ البُكَاءُ الأَصعَبُ .. في بُرهَةِ وَدَاعٍ ..

إنزَلَقَت يدينا على الحَاجِزِ الزُجاجي ، كَمَن أَفلَتَ يَداً كَانت مُعَلَقَةً على طَرفِ جِسرٍ تَارِكٍ خَوفَهُ لِلهاويةِ..

إِنَّها هَاويَةُ الموتِ .. أَيُعقَلُ أَن تَحمِلَ حَقائِبَها بِهَـذِهِ الخِفَةِ ! ، هَل تَأَفَفَت مِن يُتمِنا ، هَل ضَجِرَت مِن ضَعفِنا ، هَل أَصابَها سَأمُ الأُمُومَةِ؟.

أَيُعقَلُ بِأَنَّها بِحَاجَةٍ لِلرَبِّ لكَي يَحميها؟ ، أم اِشتَاقَت لحَبيبٍ ودَّعَتهُ مُنذُ أِرَبعَةِ أَشهُرٍ في نَفسِ المَكَانِ و الزَمانِ و على نَفسِ السَرير !! ..

هَا هُم رِجَالُ السَلامِ الأَبيضِ بِثيابِهم النَقيَةِ ، يَحمِلونَ مَلامِحَ حُزن يَخرُجونَ مِنَ مَوارِبِ البابِ ليبشرونا أو ليعَزُونا ..

وَقَفَ الطَبيبُ يَنظُرُ إِلى شَتَاتِ حُزنِنا :

أَحِبَتي ، أَبنائي ، طُوبى لِمَن اِختَارَهُ الرب ..

طوبى لِمن اِختَارَهُ ..

و نَحنُ .. مَاذا عَنا ؟.

هَل وَقَعَ الإختيارُ على أَرمَلَةٍ مِسكينَةٍ ، لمْ يَبلُغ أَطفالُها سِنَ الفُتوَةِ ، و لَمْ يَشبعوا مِن ضِرعِ حَنانِها ، سَيَقولُ لَكَ البَعضُ إِنَ لِكُلِ بَلاءٍ حِكمِةٌ.

حِكمَة ..

و حِنكَة ..

و مِنحَة ..

و مِحنة

و أُم غَيَبَها الموتُ و رَمَى خَلفَ جُثمانَها أَطفَالٌ بِعُمرِ الشَوقِ إِلى حُضنٍ يَجمَعُ يُتمَهُم ، و بَيتٌ يُلَملِمُ شَتَاتَ بُؤسِهم ، و عَمودٍ يحمِلُ فُتَاتَ خُطَاهُم إِلى مُستقبَلٍ مَغبُونٍ ، يا صَديقي أنتَ في لُبنان ..

هَل تَعرِفُ ما معنَى أَن تَكونَ في لُبنان ..

هَذا يَعني بِأَنَّ الحَرامي أكثرُنا شَكوى مِنَ الحَالَةِ الإِقتِصادِيَةِ التي تَهوي بِنا و بِالبِلادِ إِلى الهَوِيَةِ ،

فَكَيفَ بِالشَرِيفِ؟. نَاهِيكَ عن هَذا كُلِهِ ، فما ظَنُكَ بأَيتَامٍ فَقَدوا شَهيَتَهُم لِلحَياةِ؟.

إنَّ الغَنيَّ هُنا ، صَاحِبُ السُلطَةِ ، و الأَموالِ الوَفِيرَةِ، و الحِسَاباتِ التي يَعرِفُها العَامَةُ و التي لا أَحَدَ يَعرِفُها ، قَد يَئِسَ مِن هذا الوَطنِ ..

أنتَ هُنا لُبناني بِالإسمِ ، و كَأنَ وَطنكَ لَعَنَةٌ قَد حَلَّت بِكَ إلى أَن يَرِثَ اللهُ الأرضَ و مَن عَلَيها ، و أَنتَ كَفَردٍ مَاذا وَرِثتَ يا هَل تُرى؟.

لَقَد وَرِثنا الفَسادَ السياسيي و الإقتِصادي و حتَّى الإجتِماعي ، فَلَقَد أَطلَقوا عَلَينا لَقَبَ بَلَدِ التَبولَةِ حَتى أَضحى هَذا الوَطَنُ كَالتَبولَةِ قَولاً و فِعلاً ..

لا يُمكِنُكَ العَيشُ هُنا مِن غَيرِ إنتِماءٍ لِفَصيلٍ مُعَيَنٍ ، لجِهَةٍ قاتِلَةٍ ، لِطَائِفَةٍ كَاذِبَةٍ ، لِلصٍ فَاسِدٍ ، لِسياسَةٍ فَاسِقَةٍ ، و تَحسِبُ نَفسَكَ سَتَنجو مِن هَذا الضَبابِ القَـذِرِ.

إن لَمْ تَجد لِضَياعِكَ ثُقباً تَحشو فِيهِ أَحلامَكَ في وَسطِ هَذا الوَطَنِ المُحتَلِ مِن أُنَاسٍ يُقَالُ بِأَنَهُم وَطَنيونَ فَهيهات هَيهَات أن تَستَطَيعَ الوقُوفَ على طُموحِكَ..

يا صَديقي هُنا، و خاصَةً في وَطَني ، لَمْ يَعُد أَحَدٌ يَحلُمُ بِالمُستَقبَلِ ، فالمَوتُ في نَظَرِ المُواطِن أَصبَحَ حُلماً ..

دَائِماً أَسمَعُ جَدّتي تَقولُ :

هَالبَلد وَاقِفة على كَف عِفرِيت ..

عِندَما أسمَعُ هَذِهِ الجُملة مِن فَمِ جَدّتي ، كَانت تُراودني عِدَةُ أَسئِلَةٍ ، أيُّ عِفرِيتٍ مِنهُم تَقصِدُ هَذِهِ المَرأَةُ العَجُوزُ !! ..

فَالعَفارِيتُ في هَذَا البَلَدِ أكثَرُ مِنَ البَشَر..

يا صَدِيقي ..

عَفاريتُنا تَربِية بَلدية ، خَرجُوا مِن تُربَةٍ نَتِنَةٍ ، و رَضِعوا الفَسَادَ مِن ثَديٍ أنكَرَهُ إبليس نَفسَهُ ، كَبِروا و كَبِرنا مَعَهُم ، خَرَجَت أَسنانُنا على نَدى الأَرُزِ ، و

خَرَجَت لهُم أَنيابٌ و قُرونٌ حادَةٌ ، و تَمادَينا بِحُبِنا لِهَذا الوَطَن ، و تَمادوا بِالنَهبِ و السَرِقَةِ ، نَحنُ كَأُناسٍ ولِدنا على الفِطرَةِ لا نَقوى عَليهم ، نَحنُ أَجِنداتٌ لِلتُرابِ و البَحرِ و الجَبلِ و الأَرزِ ، هُم أَجِنداتٌ لِأبالِسَةٍ خَارِجيَةٍ أَرادَت أَن تَعرِضَ عَضَلاتِها أمامَ وَطَنٍ يَتيمٍ ، مُحاصَرونَ مِن كُلِ مَكَانٍ ، مِن غَضَبِ البَحرِ ، مِن سُوءِ الجِوارِ ، مِنَ الإِحتِلالِ الذي قَضَى على بُنيتِنا التَحتية ، مِن سَخَطِ السَماءِ ، مِن عَفارِيتِ الوَطن ، حَتى الهَواءُ قَد ضَاقَ في صُدورِنا ..

إِن لَمْ تَتَبِعَ مِلَةَ أَحَدٍ مِن هَؤلاءِ العَفارِيتِ ، فَلا مَكَانَ لَكَ بينَ كَراسِي المُستَقبَلِ ..

مَسحُوقٌ أَنتَ لا مَحالة ، على حَسَبِ الزَمَنِ المُلوَثِ لِلطائِفَةِ ، و كُلُ طَائِفَةٍ مُجزَئَةٍ شاءَ مَن شاءَ ، و أبى من أبى .. إِن كُنتَ مَسيحياً فَعَليكَ أَن تَختار بَينَ هَذا الشَرخِ اللاوَطَني :

التَيارُ الوَطَني ، القُواتُ اللُبنانيَةِ ، حِزبُ الكَتائِبِ اللُبناني ، حِزبُ الوَطَنيين الأَحرار ، تَيارُ المَرَدَةِ ، حُرّاسُ الأرزِ ، حِزبُ الوَعدِ ، الكُتلَةُ الوَطَنيَةُ اللُبنانِيَةُ ، الحِزبُ الديمُقراطي المَسيحي .. و خُذ مِن شِعاراتٍ و أكَاذيبٍ و تَلفيقٍ .. و كُلُهُ بِاسمِكَ يا وَطن..

فَكُلَما إنتَمَيتَ لِحزبٍ أَقوى ، مِن هَذِهِ الأَحزابِ و التّياراتِ المَسيحيَةِ ، كُلمَا كُنتَ أَشَدُ فَساداً و اِستِبداداً و شَريكاً بِتَلويثِ هالوَطَن يا خيي ..

و إِن كُنتَ مُسلِماً شيعياً ، فَأمامُكَ أَربَعَةُ خَياراتٍ :

حِزبُ الله ، أو المُقاوَمَةِ اللُبنانيَةِ ما تُسَمى حَركَةُ أمل أو التيارُ الشيعي الحُرُ ، أَو الحِزبُ الدِيمُقراطي الإِشتِراكي اللُبناني ..

يا سَلام على هَذِهِ الأَسماء ، لَمْ تُرعِب أحداً سِوى هَذا الوَطن ، هَذِهِ العَفارِيتُ الاربَعَةُ ، جَعَلَت مِن بَيروت كَقِطعَةِ كَعكَةٍ مُقسَّمَةٍ لا تَستَطِيعُ لَمسَها أَو

تَذُوقَها ، و لَكأنَ بَيروت مُلكاً لأَبيهِم و لأَسيادِهِم اللذين يَمدونَهُم بِالمالِ و السِلاحِ لِلقَضاءِ على ما تَبقّى مِن هَذا البَلد يا خَيي ..

و إن كُنتَ مُسلِماً سُنياً فَعَليكَ بِهذِا الوَحلِ المُلطَخِ بِالأكَاذِيبِ :

كَتَيارِ المُستَقبَلِ ، أَو الجَماعَةِ الإِسلامِيَةِ في لُبنان ، أو جَبهَةِ العَملِ الإِسلامي ، أَو الأَحباشِ الذِينَ يُطلِقونَ على أَنفُسِهم جَمعِيَةِ المَشَارِيعِ الخَيرِيَةِ الإِسلامِيَةِ ، أو حِزبِ التَحرِيرِ ، أو حِزبِ الحِوارِ الوَطني ، أو حِزبِ النَجادَةِ ، أو حِزبِ شَبيبَةِ لُبنان العَربِي .. و هَلمَّ جَراً مِن شُروخٍ و فَضائِحٍ و أَسماءٍ مَكَانُها في الحَاوِيَةِ ، فَهَذهِ الأَسماءُ اللّمَاعَةُ لا تَخدِمُ سِوى مَصالحِهم و فُروجِهِم و أكَاذِيبِهم ، و كُلَهُ إِذا لاحظتَ يا عَزِيزِي بِاسمِ الإِسلامِ و بسمِ الله ، فَمِنَ الجَميلِ أَن تَجعَلَ مِنَ الآلِهَة شَمّاعَةً لتَسرِقَ و تَنهَبَ

و تَحتمي بِالربِ الذِي وَهَبَكَ الوقوفَ على قَدَمِكَ .. كَمان يا خَيي ..

و إِن كُنتَ دُرزياً ، فَحَيا على العَقارِبِ و الحِربائاتِ المُلَونَةِ ، خُذ هَذِهِ الأَسماءَ المُستَعارَةَ :

الحِزبُ التَقدُمي الإشتِراكي ، و الحِزبُ الدِمُقراطي اللبناني ، حَركَةُ النِضَالِ اللبناني العربِي ، تَيارُ التَوحِيدِ اللبناني ، جَمَاعَةُ المُوَحِدين ، حِزبُ الوجُودِ اللبناني ، و هَكَذا مِن أَسماءٍ و أَقنِعَةٍ و سُمُومٍ و خُرافَاتٍ و إِنحِرافاتٍ فِكرِيَةٍ و وَطَنيَةٍ ، في قَلبي سُؤالٌ لَهُم أُريدُ أن أطرَحَهُ ، و إِن لَمْ أسال هذا السؤال سَأموتُ قَهراً :

عَلى مَن تَكذِبونَ يا لُصوصَ الوَطنِ ؟ ، عَلى ما أظُنُ بِأنَ رَوائِحَكُم قَد بانَت ، و مَلامِحُكُم قد انكَشَفَت ، و مَظَاهِرُكُم قَد اتَضَحَت .. وَلي عَلِكُن يا خَيي ..

يا صَدِيقِي شَايف هَالوطن ، الذِي نَراهُ بِمجهَرِ النَهبِ و السَلبِ ، فَإنَّ الطامِعِينَ بِهِ و بِمُستَقبَلِهِ يَرونَهُ كَثروَةٍ لإِجتِثاثِ ما تَبقى مِنهُ و مِن شَعبِهِ ..

يا خَيي أنت بِلُبنَان ..

وإن كُنتَ عَلوياً ،فَأنتَ في أمَانٍ دَائِمٍ قَد رَضَت عَليكَ جمِيعُ الحُدودِ و المَطاراتِ و المَوانئِ ، لِأنَ لَكَ حُرِيَةُ التَنَقُلِ عَبرَ مَمَراتِ جيراننا الأَشِقاءِ قَدَّس الرَبُّ بَرَكَتَهُم ، فَعَليكَ أَن تنضَمَ إِلى إِحدى هَذِهِ الأحزابِ الثَلاثَةِ :

كَالحِزبِ العَربي الدِيُمقراطِي ، أو حَركَةِ الشَبابِ العَلويين ، أو جَمعيةِ الفُرسانِ الخَيرِيَةِ ...

هَذِهِ السُمُومُ الثَلاثَةُ لَيسَ لَها أَيَةُ قَواسِم بِالوَطن ، إِلا شَيءٌ واحِدٌ يَعرِفُهُ الجَميعُ ، إِنَّها وُضِعَت لِلتَجَسُسِ على كَرامَتِنا ، يُراقِبُونَ عُريَّنا ، يرصُدونَ عَوراتِنا ، يَرمِقُونَ ما تَبّقَى مِن سَترِنا ، دَعني أَقُولُ لَكَ بِأَنَّها مُخلّفاتُ عِصاباتٍ ، أَبَتْ أَن تُنزَعَ مِن قَلبِ الوَطَنِ.. هَنيئاً لِلنِفاياتِ الحِزبِيَةِ التي تَتَنصَتُ على عَوراتِكَ يا خَيي اللُبناني ..

و إِن كُنتَ قَومياً فَلكَ هَذِهِ الكِذبَةُ التي لا بُدَّ أن تَمُرَ بِها أو أَن تَمُرَ بِكَ شِئْتَ أم أَبَيتَ ، خُذ هَذِهِ الأَسماءَ

التَنكُرِيَةَ التي لَمْ تأتي على هَذَا الوَطَنِ إلا غَدراً و خُبثاً :

كَحِزبِ البَعَثِ اللُبناني ، و حِزبِ طَليعَةِ لُبنان العَرَبِي الإشتِراكي ، و الحِزبِ السوري القَومي الإجتِماعي ، و تَجمُعِ اللِجانِ و الرَوابِطِ الشَعبِيَةِ ..

يا حَسرَتي عَليكَ يا لُبنان ، شُو بِدَك تحمل زبالة لَتِحمل ، و كَأنَني أرَاكَ قَد حَبِلتَ بِالحَرامِ ، و وَلَدتَ لنا مِن رَحمِ الإغتِصابِ هَذِهِ الجِراءُ القَومِيَةُ التي لا تَعرِفُ مِنَ القوميَةِ إلا ..... ، ضَع في هَذا المكان ما يُنَاسِب مِن كَلِمَةٍ لِأنّ الكَلامَ تَعِبَ مِنَ الكَلامِ ، كَما قَالَ أُستَاذُنا دَرويش ..

شُو يا خَيي ، نكفِي !!

حَسنَاً يا صَدِيقي ..

إن كُنتَ ذُو أفكَارٍ نَاصِرِيَةٍ ، فَدَعني أَقولُ لكَ كَما تَقولُ جَدَّتي :

بِدك زَغرودة ..

فَعَليكَ بِالإنتِماءِ إلى هَذِهِ الأَصنَافِ المحمومَةِ بِالدَّمِ الحَرَامِ :

كَحِزبِ الإتِحادِ ، أو حِزبِ النَاصِريين المُستَقلين أو ما يُسمَى حَركَةُ المُرابِطين ، أو إتِحاد قِوى الشَعب العَامِل ، أو التنظِيم الشَعبي الناصِري في لبنان ، أو حَركَةِ النَاصِريين الدِيمُقراطيين ، أو الإتحادِ الإشتراكي العَربِي ، أو حِزبِ شَبِيبَةِ لُبنان العَربي..

أرجُوكَ إذا تمَعنْتَ بِهَذِهِ الأَسماءِ و الشِعاراتِ المُتخَمَةِ بِالعُفونَةِ فَلا تَتقيء ،لَمْ يَعُد في هذا الوطَنِ مَكانٌ فارِغٌ إلا وتقيؤوا فيه يا خيي.

و إن كُنتَ يَسَارِياً , هَل تُرِيد أن أُلقِي بعضَ الضَوءِ على اليسَارِ المُظلِمِ ؟ ..

و لكَنِ عَليكَ أن تَختارَ بينَ هَذِهِ الفَصائِلِ الشِبهِ مُنقَرِضَةٍ :

كَالحِزبِ الشِيوعي اللُبناني ، و حَركَةِ الشَعبِ ، و رَابِطَةِ الشَغّيلة ، و مُنظَمَةِ العَمَلِ الشُيوعي في لبنان

، و حَركَةِ التيارِ الدِيمُقراطي ، و حِزبِ العَمَلِ الإشتِراكي العَربِي ، و التَجَمُعِ الثَوري الشُيوعي ، و الحِزبِ الدِيمُقراطِي الشَعبِي اللُبناني ، و البَديل التَحريري

و رُوح شِربل بِقبرو كِنت بِدي قُول :

لم يَعُد هَذا الوَطَنُ يحتَمِلُ كُلَ هَذِهِ النِفاياتِ ، و مِنَ المَعلومِ بِأَننا كأبناءِ وَطَنٍ نُخدَعُ دَائِماً بِالشِعاراتِ ، و لِلعِلمِ بِأَننا شَعبٌ عَاطِفيٌ نَقتُلُ فِيلاً بِدَمٍ باردٍ نُصَرَةً لطَائِفَتِنا ، و نَبكي على نَملَةٍ لِأَنها مِن مِلَّتِنا ، أَيَةُ حَقارَةٍ هَذِهِ بِحقِ الرَبِّ يا خَيي !! ..

و إن كُنتَ ارمنياً ، فَلكَ الحَقُ بِالإنتِماء لِهَذِهِ الأحزابِ التي فَرَّقتهم أكثَر مِما جَمعتهُم :

كَحِزبِ الطَاشناق ، أو حِزبِ الهَانشَاك ، أو حِزبِ رامغَافار ، أو حَركَةِ اللبنانيين الأرمن الأحرار ..

اِنتَبه لِكَلِمَةِ أَحرار ، كُلُ هَذِهِ الأَحزابِ لَمْ تَزد في مِيزَانِ الحُريَةِ إلا عُبوديَةً ..

نَحنُ كَلبنانيين نَنتَظِرُ ، و لَكن لَمْ تُخبرني ماذا ننتَظر!!.

يَا صَدِيقي :

نَحنُ نَنتَظِرُ الهُنُودَ الحُمرَ الأمريكان لِإنشاءِ بَعضِ الأَحزابِ و التَياراتِ ، حَتى تَكمَل مَع هَالوَطن يا خَيي ..

و لَكِن سَوفَ تَكمل حقاً عِندما تَسمَعُ بِأنَّ هُنَاكَ حِزبٌ قَد شَكلتهُ الطَائِفَةُ السِريانِيَةُ :

كَحزبِ الإتِحادِ السِريانِي ..

أُريدُ أن أصرُخَ أينَ اليَابانِيين ليروا مَاذَا حَلَّ بِوَطني أمَامَ وَطَنِهم الذي لا يساوي سِوى ذَرَةٍ أمَامَ في هَذِهِ المَجرّةِ ..

و لِلأكرادِ نَصيبٌ في هَذا الخَرابِ المُؤثَثِ بِالفَسادِ ، فَإن كُنتَ كُردياً ، فَأمَامَكَ خَيارانِ اِثنان :

إمّـا الحِزبُ الديمُقراطي الكُردي في لُبنان ، أو حِزبُ رزكَاري ..

و إِن لَمْ يُعجِبُكَ هَذانِ الحِزبانِ ، فَلا مَانِعَ بِإنشاءِ حِزبٍ جَدِيدٍ ، فَهنُاكَ مُتَسَعٌ مِنَ الخَرابِ يا خَيي ..

و قَد تَمرُ بِبؤسِكَ مِن دِيارِ لَيلى في طَرابُلس ، أو الجَنوبِ الجَرِيحِ ، أو عِرسال ، أو بَيروت ، و لا تَقتَنِع بِهَذِهِ الأَسماءِ و المُسمَياتِ ، فَلا عَليكَ ، هُنَاكَ أحزَابٌ أُخرى ، أبوابُها مفتوحَةٌ لِلفاسِدينَ و أولادِ الحَرامِ ، فَيحِقُ لأَي لِصٍ أَن يَنتَمي لَها، خُذ هَذِهِ الأَسماءَ التي جَعلَت مِنَ الوَطَنِ سَلطَة :

كَالكُتلَةِ الدُستوريَةِ ، و حَركَةِ التَجَدُدِ الدِيمقراطي ، و الحَركَةِ الديُمقراطيةِ اللُبنانيَةِ ، و الحِزبِ الجَمهُوري اللبناني ، و حِزبِ اللُبنانيونَ الجُدُد ، و حِزبِ البِيئَةِ اللُبناني ، و الحَركَةِ العِلمانيَةِ اللُبنانيَةِ ، و أحفادِ البِشارة ، و الحِزبِ الفينيقي ..

هُو ما ضل غير الفينيقيين يفتحولنا حزب ..

بَعضُ المَرّاتِ أقِفُ على حَافَةِ التَارِيخِ مُنادياً بِأَعلى أَلَمي ، صارِخاً بِكُلِ وَجَعي :

أَيُّها الآشوريون ، أَيُّها المَغولُ ، أَيُّهَا الغَجَرُ !! ..
أينَ أَنتُم ، عُودوا فَإِنَ هَذا الوَطنَ بِحاجَةٍ لِأَحزابِكُم ، حَتى يَكتَمِلَ الوَطَنُ نَتانَةً و عُفونَةً ..
و إن لم تُصدِق ، فإنَ التَاريخ لَمْ يَمحو أَحزاباً البَتة ، بَل خَلَّدَها ، ليجعلَها عِبرَةً ، و عَرَبَةً تَدوسُ مَا تبقى مِن كَرامَتِنا ، فَمِنها :
الحِزبُ الشيوعي اللُبناني السوري ، و الحِزبُ الدِيمُقراطي اللُبناني ، و مُنَظَمةُ الإِشتراكيينَ اللُبنانيين ، و حِزبُ التَجَدُدِ اللُبناني ، و تَحالُفُ 14 آذار ، و مِليشيات لبنان ..
يَقصِدُ هُنا بِكَلِمَةِ الميلشيات بِأَنَّ لُبنان بِأحزابِهِ و حَركَاتِهِ و تَيّاراتيهِ و فَصائِلِهِ كُلُها ميلشيات ، زادَت في تفشي مرَضِ السَرطانِ في جَسَدِ وطَني .. صَدّقني يا خَيي ..

إذاً تَوقَفَ الهَواءُ ..

كَغَصَةٍ في حَلقِ الأُمومَةِ ..

فُتِحَ لَنا البَابُ لِنَرى تِلكَ المِسكينَةُ ..

على جَنباتِ الخُدودِ بِداياتُ دُموعٍ ، و بَقايا أَسئِلَةٍ تَقولُ :

لِما أَنتِ في عَجَلَةٍ مِن أمرِكِ يا أُمّاهُ؟!.

لَن تَتَجَرأ أن تَسأل ، و إِن سَألتَ ، فَلَن تُجِيبَ ، وَحدَهُم مَن تَعجَلَ بِهُمُ المَوتُ في يَومَينِ ، و مَن إِرتَقى على سُلَّمِ السَماءِ عَقِلوا دَلالَةَ الحُبِ و بِطَانَةِ الحَياةِ ..

مَاذا يُفيدُ النَحيبُ أمَامَ جُثمَانٍ كَانَ بِالأَمسِ يَنطِقُ بِأسمِكَ ، يَخَافُكَ و يَخافُ عَليكَ و يَخَافُ مِنَك ، فَأنتَ مُضغةٌ مِن رُوحِها ، و عَلَقَةٌ مِن رَحمِها ، و عِظاماً مِن تَعَبِها ، و لحماً من سَهَرِها ..

سَتُنكِرُ سُكونَها بُرهَةَ مَوتٍ ..

أنتَ الآن المُؤتَمَنُ عَلى وَضعِ جَسَدِها في تابوتٍ خَشَبيٍ ، و كأنَ الحَياةَ تَقولُ لَكَ :

مُباركٌ عَلَيكَ يُتمُكَ يا صَغَيري ..

هَيا اِمسَح دُموعَكَ ، و دَعها لِلأَيامِ القَادِمَةِ فَإنها أشَدُ ضَنكَاً و قَسوةً ، لا تَبكي يَا صَغَيري ، سَاعَاتٌ و سَينتَهي كُلُ شَيءٍ ، سَتُجَرَدُ أُمُكَ من اِسمِها و مِن ثَوبِها و مِن إرادَتِها ، سَتُدهَنُ بالزَيتِ و تُلَفُ بِثوبِ المُوتِ ، و تُسَجى في تَابوتِها المَحفورِ ، و يُهزُ نَعشُها بَعدَ القُدّاسِ الأَعظَمِ ، و تُلقَى عَليها آخِرُ نَظرةٍ ..

نَعم آخِرُ نَظرة ..

النَظرةُ الأخَيرَةُ ..

تِلكَ اللقَطَةُ التِذكارِيَةُ التي يَصعُبُ على الذَاكِرَةِ مَحوَهَا ، لن تَنجو مِن شَبَحِها ، هَذِهِ اللّقطَةُ بالتَحديد سَوفَ تُطَارِدُكَ أَينَما ارتَحلتَ و حَللتَ ، فَإنَّها لَعنَةٌ و نِعمَةٌ في الوَقتِ ذاتِهِ ..

شَاهِد مَلامِحها عَن كَثَبٍ، و جَفّف دُموعَ ألمِكَ بِسُباتِها ، و بَعدَ أَن يُطوى جُثمانُ مَن أَحَبتكَ بِصِدقٍ ، سَيُطلَقُ عَلَيكَ اِسمُ : يَتيمٍ ، أو مِسكينٍ.

هَذِهِ النُعوتُ الثَلاثَةُ أسوأُ مِن فَقدِ أهلِكَ بِأَكمَلِهم ..

أَنتَ الرَمَادُ على رِمَالِ الحِدادِ ، كُثبانُ المُعَزِينَ يُحِيطونَ بِنَعشِها ، يَبكُونَ ، و يَتَباكُونَ ، و يَكذِبونَ أَمَامَ سُخرِيَةِ الحياةِ ..

عَتمَةُ الحُزنِ في كُلِ مَكَانٍ ، أطنَانٌ مِنَ الدُموعِ تُـذرَفُ مِن غَيرِ تَوقُفٍ مِن أُناسٍ تَعرِفُهُم ، و أُناسٍ لا تَعرِفُهم ، بِماذا يُفَكِرُ هَؤلاءِ البَشَرُ في هَذِهِ اللحظَةِ؟.

هَل تُكَبُ الوجُوهُ على غُمومِها لِأَنها تعلَمُ سابِقاً بِأَنَ حالها سيكونُ كحالِ هَذِهِ المَرأَةِ يوماً مَا؟ أم أدماهُمُ العُمرُ و شَعروا بِدنوِ الأجَلِ ! ..

إِنَّهُ المَوتُ يا عَزيزي ..

نَحتَضِنُهُ باللَّطمِ و العَويلِ ، و نُودِّعَهُ بالنواحِ و النَحِيبِ ، نُقيمُ لهَيبَتِهِ المَآبِنَ و المَحافِلَ ، و نَرتَدي لَهُ لباسنا الرَسمي لِلسَوادِ ، نَنحَرُ الذَبائِحَ لمجالِسِهِ ، و نَسكُبُ القَهوَةَ لِضيوفِهِ ، نُغيّبُ اِبتِسامَتَنا في حَالِ وجودِهِ ..

ما هَذا الهَلَعُ في مُقدَمِهِ ..

ها هِي أُمي ..

طَوَت أَجَلَها على فِراشٍ لَيسَ بِفراشِها ، و أرخَت شَعرها المُنفَلِتَ لِلقَدَرِ ، أَقدارٌ تُمَرِرُ يَدها على جَسَدِها مِن غَيرِ اِرادَتِها ، تُرَبِتُ على سَكينَتِها بِلا رُوحٍ و لا نَفَسٍ ..

كُلُنا يتسائَلُ في حَالِ حُلولِنا أمامَ وَجبَةِ الدِيدانِ الهَشَّةِ كَيفَ يُجَرَدُ الجَسَدُ من سِحرِ الرُوحِ؟ !! ..

إلى هَذا الحَدِّ مِنَ الخَـذلانِ و النِفاقِ ، عُمرٌ مَديدٌ مِنَ الصُحبَةِ و المَحَبَةِ ، و في لَحظَةِ ضَعفٍ تَنسَلُ

الرُوحُ مِنَ الجَسَدِ ، مُخَلِّفَةً خَلفَ غَدرِها دَماراً مُؤَثثاً تَحتَ قَبضَةِ المُوتِ ..

إذاً هَذِهِ الحَياةُ خالَيَةٌ مِن فيتامينِ الأمانِ ، إن كَانَتِ الأرواحُ تَقعُ بِأثوابِها في مَغَبَةِ الغَدرِ ، فَما حَسبُكَ ما يَجري بِينَ الأَحِبَةِ ! ..

مَخدوعِينَ بِمَفاتِنِ الدُنيا ، نَلهَثُ خَلفَها ، و خَلفُنا سَيلٌ مِنَ المَوتِ يُطَارِدُنا بِكُلِ وسيلَةٍ ، يُفسِدُ سَعادتَنا و يَترُكُ مَكانَها جُرحاً لا يَبرأُ أبداً ..

لن تُرَمِمَكَ أيَّةُ ضَمَاداتٍ لجِراحٍ لن تَلتئِمَ ، تَكَادُ أن تَقِفَ على شَفيرِ صَمتِها ، تَكَادُ أَن تُمسِكَ بِتَلابيبِ هُدوءِها ، تَكَادُ أَن تَشُدَ وِثَاقَ سُكونِها تَكَادُ أَن تَصرُخَ بِكُلِ مَا أوتي الفَقدُ مِن قُوَةٍ ، باكياً ، نَائِحاً ، غاضِباً ، مَكروباً :

لَيسَ عَدلاً يا أُمَاهُ ، أَلا يَكفي أَبي ، و الآنَ أنتِ ..

و لكن لن يُفيدُكَ عَوِيلُكَ ، شَيءٌ في أحشاءِ حُزنِكَ يَهمِسُ في كَربِـــكَ :

لا تَصرُخ يا بُني ، فَلَن يَسمَعَكَ أَحدٌ ..

هَا هَيَ قَد عَزَمَت على الرَحيلِ ، حَـمَلَت أمتِعَتَها بِقلبِها ، و نِسوَةٌ مِن أَهلِ المَدينَةِ ، باكياتٍ نَادِباتٍ ، مَكسّواتٍ بِالجَزعِ ، لَاطِماتٍ على الخُدودِ ، شاقّاتٍ لِلأَثوابِ ، مَصحُوباتٍ بِالصُراخِ و الأَكاذيبِ مأَجوراتٍ شَاكياتٍ ..

دَخَلنَ بِإنكِسارٍ ، و لكأنَ أُمي أُمُهُنَّ ، لا أَعتَقِدُ بِأنَ هُنَاك صِلةُ قَرابَةٍ ، و لا قَواسِمُ مُشتَركَةٌ ، سِوى أَنّهُنَ مأجوراتٍ لِساعاتٍ مُقَابِلَ مبلَغٍ مِنَ المَالِ ..

نَحنُ شُعوبٌ نُرِيدُ أن نَحَيا حَتى و لو عَلى حِسابِ الأمواتِ ..

لِأَنَّ الجُوع كَافِرٌ يا خَيي ..

و لأنَكَ في لُبنان ، أنتَ في كلتا الحَالَتينِ سَتبكي ..

كُلُ لَحظَةٍ يَبكي هَذا الوَطنُ أَرزاً ..

وَطنٌ مُخَاطٌ بِالجِبالِ التي شَقَّتِ الفَضاءَ ، ظَاهِرُهُ بَحرٌ و بَاطِنُهُ سَماءٌ ، مَنحوتٌ بِأُبَهَةِ الطَبيعَةِ ، و

مَحروسٌ بِتعوِيذَةِ الصَوتِ المَحمُومِ بِالشَجَنِ ، صَوتٌ لَمْ يُنجِبُ هَذَا الوَطَنَ غَيرُهُ ، صَوتٌ لَمْ يتَّعرى لِلحَياةِ ، لَمْ يَخلَع قُدسيَتَهُ ، لَمْ يَتجرَد مِن صَمتِهِ ، صُوتٌ رَفَعَ اِسمَ وَطن بِكُلِ ذَراتِهِ ، اِسمٌ مَهَما أَضَعتَهُ ، فَهو لَن يُضيعَك ، صَوتٌ إِن فَقَدتَهُ ، فَسَيجِدُكَ ، صَوتٌ يصلُحُ لِجَميعِ فُصولِ الحُبِ و البُغضِ ، و السِلمِ و الحَربِ ، صَوتٌ يَرُدُكَ إِلى الله إِن فَقدتَ جمِيعَ الأَصواتِ ، إِنَّها سَيدَةُ الشُروقِ ، و النُوتَةِ النَقيَةِ ، جَوهَرةِ الجَبلِ العَتِيقِ :

فَيروز ..

إذا مَرَرت مِن هُنا ، مِن سُفوحِ الجِبالِ ، مِن هِضَابِ الأرزِ ، مِن لَحنِ الرَاحِلِينَ ، من نَدى الغَابِرينَ ، مِن ظِلِ العَائِدِينَ ، مِن حَقائِبِ الحَياةِ الغارِقَةِ بِالأُمنياتِ ، سَتسمَعُ مِن بَقايا الصَدى صَوتَها ، فَيروز وَحدَها مَن جَعَلَت مِن هَذا الوَطَنِ نَغمَةً طَاهِرَةً ..

حُمِلَتِ الأُمومَةُ ..

على صَخَبِ المُتوافِدينَ ..

إلى كَنيسَةِ الجَنوبِ المارونيَةِ على السَفحِ الخالي مِن مَلذّاتِ الحَياةِ ، كَنيسَةٌ يَتيمَةٌ ، مُعَلّقَةٌ على صَخرَةٍ عَالِقَةٍ فَوقَ غُرورِ الصخورِ ، بَينَ كُلِّ خَطوَةٍ و وَجعٍ يُهَزُ التَابُوتُ بِأَيادي الأَحِبَةِ ..

أحسِدُهَا ..

نَعَم تِلكَ الأيَادي المُخشوشِنَةِ ، نَحنُ أقرَبُ إليها مِنهُم ، و لَكِنّ نُعومَةَ يُتمِنا لَمْ تَبلُغَ إدراكَ حَملِ الجُثَثِ ، فَقَد حَملَ هَذا القَلبُ ما يَكفي مِن جُعودَةِ يُتمٍ ، و ما إن ماجَتِ الرؤوسُ و وَجَعُنا يَهتَزُ سِكيناً فَوقَ كُلِ أَلَمٍ ، ها قد بانت سَوارِي كَنيسَتِنا ..

تُفتَحُ أَبوابُها مُتَنَكِرَةً بِالصَمتِ ، و تُقرَعُ الأَجراسُ مُتَخَفيَةً بِالهَيبَةِ ، و تَهدأُ الأَرواحُ و تَخلُدُ الأَشباحُ إلى تَراتِيلِ آخِرِ مَقطوعَةٍ نَسمَعُها في حَضَرةِ الأُمومَةِ ..

و الآن إلى أين ؟

إِلى التُرابِ ، إِلى الحُضنِ المُكللِ بِالطين ، إِلى الأَصلِ الذي سَيُعِيدُكَ نَسياً مَنسياً ، هَذا مَكانُكَ ، لا أُمنيات لا آلام و لا أحَلام ، و لا تَعَبٌ و لا صَخَبٌ ، هُنا دَارُ الرَاحَةِ و السُباتُ الأبَدي ، سَتَخلُدُ هنا إِلى أَن يَنتَهي المَدى ، إِنَّهُ المَدى الذي يُفكِكُ لَحمَكَ ، و يَسحَقُ عِظَامَكَ ،و يَدعو ما طَوتُهُ الأَرضُ إِلى إِلتِهامِكَ,

هُنا سَيتَحدّثُ مَعكَ التُرابُ ، سَيصرُخُ في أُذُنَيكَ :

مَن أَنتَ ؟

سَتنحَني لِكُلِ شَيءٍ ، حَتى أَنَكَ لن تَستَطيعَ أَن تُبعِدَ عن جَسَدِكَ ما يُؤذيكَ، أَنتَ أَيُّها الإِنسانُ ، أَيُّها القَاهِرُ الجَبّارُ المُتّكَبِرُ ، يا مَخزَنَ الحَسَدِ و الكَذِبِ و الغُرورِ، تَخَيَل تِلكَ اللحَظة، بَعدَ أَن تَقِفَ على أَنفِكَ ذُبابَةٌ ، كَانَت هَذِهِ الحَشَرَةُ التي كُنتَ تَستَقذِرُها تَخافُكَ و تَهرُبُ مِنكَ و اليَوم أتت لِتَستَرِدَ حَقّها، لِتثأر لِكرامَتِها ، لِتثأرَ بِضَعفِها مِن ضَعفِكَ ..

هُنا و في هَذا المَوقِفِ الكُلُ يُرِيدُ أن يَتَخلَصَ مِنكَ ، و لكَن بِشكلٍ جمِيلٍ كَاذِبٍ ، هُم الذينَ أحبُوكَ سَيكونونَ أولَ مَن يرمونَ التُرابَ عَلى الذَاكِرَةِ ..

إذاً هُم خَونَةٌ لِلذَاكِرَةِ !! ..

نَعَم إنّهُم خَوَنَةٌ لِلذَاكِرَةِ ، و أَنتَ كَشَفتَ الغِطاءَ عَن خيانَتِهم ، بَل دَعني أَقولُ لَكَ بِأَنَكَ إستَعجَلتَ الرَحيلَ..

صِفْهُم بِما تَشاءُ ، فَوصفُكَ لَهُم كَغِشاءِ الماءِ بِلا طَعمٍ و لا لَونٍ ، و حَتى لا تَظلِمَهُم فَهذا واجِبُهُم ، و حَتى تَكتَمِلَ الصَورَةُ الصَحيحَةُ التي خَدعوكَ بِها فَدفنُكَ يُعَدُ إكراماً ، مِن البابِ الذِي يَقولُ :

إنَّ إكرامَ الميتِ دَفنُهُ ..

هَنيئاً لَكَ بِهم ، و لَكن هَل هَؤلاءِ هُم اللذينَ كُنتَ تَتَغنَى بِهم و تَمُدُ لنا جُذورَ الوَصلِ بِمَحَبَتِهم ، هَل هُم هَؤلاءِ أَحبابُكَ و أَصحَابُكَ و أَبنَاؤكَ و أحفَادُكَ و خِلّانُكَ ؟ يا فَرحَـتَكَ بِهم في هَذِهِ اللَحظَةِ

أتوَكَ مُتَبَاكينَ ، نَائِحينَ ، كَاذِبينَ ، مُنافِقينَ ..

يَذرِفُونَ فِراقَكَ في وقتِهم الضَائِعِ ، أتوَكَ ليُلقوا نَظرَةً على ما بَقيَ مِنَ الذَاكِرَةِ ، أتُوكَ لا ليواسوا صَمتَكَ ! ، بل لَيواسوا الذَاكِرَةَ التي كُنتَ يَوماً مِنَ الأَيامِ جُزءاً مِن مَاضيهم ..

يا مِسكين كَم كُنتَ أَبلَه ..

بَعدَ كُلِ هَذا الخُبزِ و المِلحِ ..

أَضحَيتَ شِبه سَرابٍ مِن مُخلفاتِ المَاضي !! ..

و لَكِن هَنيئاً لِمن أحبَكَ بِصدقٍ و شَغَفٍ ، سَيبقى لِسانُهُ يَلهَجُ بِذكِرِكَ ، في المَحافِلِ و المَآبِنِ و الخَلواتِ و الصَلواتِ ، بينَ مَن أَحَـبَـكَ و بَينَ مَن كَرِهَكَ ..

سَيَنثِرُ مَحاسِنَكَ في قَلبِ كُلِ مَن لَمْ يَراكَ ، سَيجعَلُ مِنكَ أَيقونَةً حَتى يَصِلَ بِمَن حَولَهُ الحالُ أن يتَمنوا لو أَنَهُم كانوا قد عرِفوكَ أو جَالَسوكَ و تمتَعوا بِرؤياكَ ..

إلى مَن أَحَبَـكَ ..

إلِيهِ وَحدَهُ ..

إلى مَن ظَنوا بِأنَ الحَياةَ سَتبني لَهُم صَرحاً مِنَ العُمرِ المديدِ ، إلى مَن غَرّتهُمُ الدُنيا و لَمْ يَشكوا يَوماً بِأنَ الأَيامَ سَتَطرَحُهُم تَحتَ التُرابِ، إلى مَن فَقدوا وجوهاً و قُلوباً و أَرواحاً و أَنفُسَاً كَانت بِالنِسبَةِ لَهُم الحَياةُ بِحَدِ ذَاتِها ..

لا تَنَم قَبلَ أَن تَهمسَ في أُذُنِهِم بِأَنَّكَ تُحِبُهُم ، لا تُدر ظَهركَ و أَنتَ قَد أَدخلتَ الحُزنَ إلى قُلوبِهم ، لا تَدَعهُم خَلفَكَ يَبكونَ فَرُبّما يَأتيكَ الصُبحُ و قَد فَارقوا الأهل و الأَصحابَ ، تَمَسَك بِهم جَيداً ، فَهُم مَاضيكَ و مُستَقبَلُكَ ، فَهُم حَياتُكَ و مَوتُكَ ، و هُم سُباتُكَ و يَقَظَتُكَ ..

أذكُرُ أَحدَ الأَصدِقاءِ و أَنا في الجامِعَةِ عِندَما أَحبَ فَتَاةً حَدَ الجُنونِ..

صَديقي جَاد مِن أَحدِ قُرى جَنوبِ لُبنان ..

جَاد و سُونِيا ..

كَانا أَيقونَةً في الحُبِ و الجُنونِ ، و رُكنٌ رَصينٌ لِلنَاظِرينَ ، تَحسُدَهُم كَافَةُ القُلوبِ على هَذا الإِرتِباطِ المُتمَاسِك ، إِلى أَن جَاءَ ذاتَ شِتَاءٍ لِتَسمَعَ الجَامِعَةُ بِصوتِ مُشَاجَرَةٍ على بَوابَةِ الجامِعَةِ بينَ هَذَانِ العاشِقانِ ..

تَجمَعَ الطَلَبَةُ حَولهُما ..

كُلُ العُيونِ تُراقِبُ هَذا الشِجَارَ ، و لكَأنَ القُلوبَ أنكَرَت مَا يَحدُثُ لَهُما ..

يا رَبّاهُ .. ما الذي يَجري !!

بِسَبَبِ خِلافٍ بَسِيطٍ ، و طَرَفٍ ثَالِثٍ دَخَيلٍ ، اِشتَعَلَ الشِجَارُ على فَتيلِ فِتنَةٍ مُدَبَرَةٍ مِن فَتَاةٍ أُخرى أَحَبت جَاد ..

و لَكِّن كَرامَةَ سُونيا مَنَعتها عنِ الخَوضِ في هَذِهِ الفِتنَةِ ، حَتى جَفّت مَنَابِعُ اِهتِمامِها بِجَاد .. فَمَا كَانَ مِن جَاد إِلا أَن لاحَظَ تَصرُفَها المُصطَنَعِ ..

لَمْ تَعُد تَخرُجُ مَعَهُ ، و تَظَاهرَت بِإنشِغالِها الغَير عَفوي ، حَاولَ مَعها عِدَةَ أَيام ، و لكَن كَانَت تَأتِيهِ الإِجابَةُ :

جَافةً ..

و دَقِق مَعي جافة..

لم يَتَمالك نَفسَهُ حَتى عَلا صَوتُهُ عَلى أُنوثَتِها ، و حَتى تُثبِت لَهُ بِأَنها لا تَخدَعُها الرُجولَةُ المُقَنّعةُ ، صَفعَتهُ على وَجهِهِ أمَامَ الطَلَبَةِ حَتى سَادَ الصَمتُ على مَلامِحِهِ ..

تَركَهَا أمَامَ دَهشَةِ مَا صَنعَت تُراقِبُ إرتِجافَ كَفِهَا ، و رَكِبَ سيارَةَ أُجرةٍ و غَادرها ، وَقعَت المِسكينَةُ تَذرِفُ دُموعَ النَدَمِ على ما صَنَعَت ، و لَكّنَ القَدَرَ كَان يَنتَظِرهُ في طَرِيقِهِ إلى مَنزِلِهِ لِتَصطَدِمَ سيارَةُ الأُجرَةِ بِمركَبَةِ نِفاياتٍ ضَخمَةٍ ، جَعلَت من سيارَةِ الأُجرة عِبرةً لَمن إتَخَــذَ السُرعَةَ دُستوراً ..

وَقَعَ جَاد في مَخالِبِ الموتِ صَريعاً ، و وَقعَت سونيا المِسكينَةُ في سُباتٍ جُنوني إلى هَذِهِ اللحَظَةِ ..

لا تَقتُلوا أنفُسَكُم بِتسَرُعِكم على مَن أَحبَبتُم ..

فَرُبّما بِلحظَةٍ يُغَيبُهُم الموتُ ، و تُغَيبَكُمُ الحَسرَةُ و النَدامَةُ ..

حُفرة ..

بمَساحَةٍ تُرابيَةٍ ..

فُكَت مِنها عُذريَةِ الحياةِ ..

هُنا في رُبعِها الخالي مِنَ النُورِ ..

و في تَابوتِها الخَشَبي المُزركَشِ ..

لَمْ يَعُد شَيئاً ينَتَظِرُكَ و لا يَحنو عَليكَ ..

لَمْ تَعُد هُنَاكَ أُمٌ تَترقَبُ مَجيئَكَ أمَامَ أَعتابِ البابِ ، و لا حَبيبٌ بينَكَ و بينَهُ مَوعِدٌ مُسبَقٌ ، و لا وَالِدٌ ليحتَفي بِمُستَقبَلِكَ ..

فَستُوسَد بِغَيرِ إرادَتِكَ ، عَارٍ مِنَ الأَحلامِ ، مُجرَدٌ مِنَ المُستَقبَلِ ، قَد خَلّفتَ وَراءَ حَياتِكَ مَاضٍ و ذَاكِرَةٍ ، و حُبٍ و بُغضٍ ، و أُمنياتٌ لَمْ تَتَحقق ..

هُنا بَينَ أَروِقَةِ الظَلامِ ، لا يَسعُني أن أقولَ لكَ إلا :

أَشرَقَتَ بِصمتِكَ في هَذا العالَمِ المُظلِمِ ..

يا هَلا بِكَ ..

نَحنُ نَعلَمُ هُنا بِأَنَّ لِسانَ حَالِكَ يَقولُ :

أعيدوني .. رُدوني .. أرجِعوني ..

و لَكّنِ هَذِهِ الحَياةَ لَمْ تَعُد تَتَحمَلُ مِزَاجَكَ السَيءَ ، و مِكرُوباتِكَ النَتِنَةِ ، و لَكَأنَها تَقولُ لكَ بِكُلِ فُتورَةِ أَعصَابٍ

لا تَحلُم بِالعَودَةِ فَقَد فَاتَ الآوانُ ..

في مَنطِقِ الحَياةِ ، أَحادِيثٌ و تُرهاتٌ ، فالحَياةُ أنا و أنتَ نَعرِفُها ، بِأنَّ جَاني الأَرواحِ عِندما يَأتِيكَ حَاصِداً ..

سَتَعي بَينَ قَارِعَةِ المُكوثِ و الرَحيل ، بِأنَكَ كُنتَ ظَالِماً و لَكن بِمقاييسٍ أنتَ اِبتَكرتَها ، و أَنتَ صَمَّمتَها ، و جَعلتَ مِنها رِداءً و مِنهاجاً ..

هُنا بِالضَبطِ سَتَفهَم بِأنَّ قَضَايَاكَ وَهمٌ ، عَقائِدُكَ خَيالٌ بَراهينُكَ خَديعَةٌ، حَقَائِقُكَ زيفٌ ، ثُوابِتُكَ ضَلالٌ ، فَكَم قَاتَلتَ مِن أَجلِ فِكرة ؟.

و أَينَ هِي هَذِهِ الفِكرة؟

فَلتَأتيكَ مُنقِذَةٌ لَكَ ..

أمضَيت عِشرينَ أو أربَعينَ سَنَةٍ أَو رُبّما عَقدٌ و نَيف ، تُقاتِلُ دِفاعاً عن فِكرَتِكَ ، و تُخَاصِمُ من تَعداها ، تُصَارِعُ مَن تَخَطى حُدودَها ، فَقط ليُقَالَ عَنكَ :

و الله يا خَيي هَالزلمة صَاحب مَبدأ ..

في لَحظَةِ تَعري الرُوحِ مِن مَلكانَةِ جَسَدِك ، سَتَسخَرُ منِكَ الحَياةُ قَائِلَةً :

طُز فِيكَ و بِهَذا المبدأ ..

أنتَ يا جاني الأفَكَار ، لِتَحفَظَ كَرامَتَـــكَ ، مُتناسياً إِنسانيَتَكَ ، شَاهِراً سَيفَكَ ، سافِكاً دِماءَ غَيرِكَ ، لِتُثبِتَ وجودَكَ على كَوكبٍ تَظُنُهُ مُلكاً لَكَ ، و وَطناً تَحسَبُ بِأَنَهُ أَحَدُ أَعضاءِ جَسَدِكَ ، مَاذا قَدّمتَ لِإِنسانيَتِكَ أَيُّها الإِنسانُ؟.

و أَنتَ على مَشَارِفِ الرَحيلِ سَتَفقَهُ بِأَنَّ الدَائِمَ على هَذِهِ الأَرضِ ، من حَمَلَ هَمَّ غَيرِهِ على كَتفِ خَيرِهِ ، ذَاكَ الإِنسانُ صاحِبُ الأَيادي البيضاءِ ، الذِي عَرفَ

رَبَّهُ في أَمعاءِ الجياعِ ، الذي عَرِفَ وَطَنَهُ و دِينَهُ و قَوميَتَهُ في إنسانيَتِهِ و حُريَتِهِ و حُرِيةِ غَيرِهِ ..

فَتأتيكَ أَفكَارُكَ لِتُنقِذَكَ مِن لَعنَةِ الموتِ يا راحِلاً و بِضاعَتُكَ مَاضٍ نَتِنٍ و أَفكارٍ لا تُسَمِنُ و لا تُغني مِن جوعٍ ..

هُنا ياأُمي ..

لا أنا و لا غَيري ..

سَيُنجِدك سِوى الدُموعِ و العَويلِ ..

و نَحِيبُ مَن كُنتِ سَبَباً في يُتمِهِم ..

و إنهالَ التُرابُ على الضَبابِ ، و جَفّت الدُموعُ على مُنعَطَفِ الخُدودِ ، و تَوقَفَت آلَةُ الأَرضِ على نَزيلَةٍ غَضَةٍ طَرِيَةٍ شَهِيَةٍ ، أُمي يا وَجَعي.

طُوبَى لِمَن إختارَهُ الرَبُّ ..

هَذَا قَبرُ السيدَةِ : فُلانة بِنتُ فُلانٍ ..

تَحلَقَتِ النِسوَةُ مِنَ الخَالاتِ و العَماتِ و القَريباتِ و الغَريباتِ ، حَولَ قَبرِها الغَارِقِ بِورودٍ سَيقتُلُها بَردُ

بِداياتِ الشِتاءِ ، يُغنينَ و يَندُبنَ ما حَلَّ بِهَذِهِ المِسكينَةِ، و عُدنا بَعدَ بُرهَةٍ مِنَ البُكاءِ إِلى بَيتِ العَزاءِ بِخُفَي حُنَين ..

تَوافَدَ المُعَزونَ فُرادَةً و جَمعاً ، مِن كُلِ مَنَافِذِ الجَنوبِ الحَزِينِ ، و فُكَ العَزَاءُ بَعدَها بِاسبوعٍ مِنَ الإِستِقبالِ و الوَدَاعِ ..

و إِجتَمَعَ الأَعمامُ و العَماتِ و الأَخوالُ و الخالاتُ في صالَةِ البَيتِ ..

وُجوهٌ مُكفَهِرَةٌ بِالتَوتُرِ ، و مَلامِحُ مَشبوهَةٌ ، و رُؤوسٌ و كأن فوقَها الطَير ، و تَرَقُبٌ لَمْ أعي ما الذي يَنتَظِرُهم أو ما الذي هُم يَنتَظِرونَهُ ..

جاءَ أَبونا بِطَلَتِهِ و هَيبَتِهِ ، راعي كَنيسَتِنا ، و أَحَدِ وجَهاءِ قَريَتِنا ، في وَجهِهِ رَهبَةُ جَمالٍ ، في عُنُقِهِ آمانَةُ المَسيحِ التي أوكَلَها لهَؤلاءِ الكَهَنَةِ ، و في سِمَتِهِ وَسامَةُ أُبوَةٍ و حَنَانُ أُمومَةٍ ..

يُعجِبُني تَواضُعُهُ ، صَمتُهُ ، هَيبَتُهُ ، رَهبَتُهُ ، قَداسَتُهُ..

و لَكنَ السُؤالَ الذي لَمْ استَخلِصَ جُذورَهُ ، مَاذا سَيفعَلُ بِنا ، في وَسَطِ هَذِهِ الجُموعِ ..

في وَسَطِ حَدَثٍ أولَ مَرَةٍ أرى مِثلَهُ ، وَقفَ أبونا مُخاطِباً إنصاتَهُم ، مُستَلهِماً حَدِيثَهُ من زُهدِهِ رَافِعاً صَليبَهُ قَائِلاً :

طوبى لِمن إختارَهُ الرَبُّ ..

يا أَبنائي ، نَحنُ اليَوم و بَعدَ أن حَكمتُموني بِمَصِيرِ هَؤلاءِ الأَيتامِ ، مِن بَعدِ أَن غطّى التُرابُ أُمَهُم المِسكينة ، فإنَني هَرَعتُ إلى صَومَعَةِ الله في أَحَدِ الكُهوفِ في قاديشا ، سِرتُ إلى هُنَاكَ حَافياً حَتى لا تَزُل حِكمَتي و حَتى تَكونَ خالصَةً لِلرَبِّ ..

و بَعدَ خَلوَةٍ دَامَت ثَلاثَ أَيامٍ فَقَد أَلهمَني الرَبُّ بِأن تَخضَعَ العائِلَةُ إلى قُرعَةٍ عَادِلَةٍ ، لِتَتقاسَموا الأولادَ فيما بَينَكُم ، و يخِفَ حِملُهُم عَلَيكُم ..

وَقفَ جَدّي قَائِلاً :

و الله يا أبونَا فِكرتَك عين العَقل ..

في تَجوِيفَةِ الخَيالِ ، و على رِمالِ يُتمي ، بَدأت أَفكاري اليَتيمَةِ تَحبو إِلى أرواحٍ غادرتنا في فَترَةٍ زَمَنيَةٍ أَثبَتت لِلجَميعِ بِأنَ الرَبَّ قَادِرٌ على كُلِ شَيءٍ .. قُلتُ بِعُنفوانِ الطُفولَةِ :

هَا نَحنُ الآن يا أبَتي و يا أُمي نَنَضُجُ يُتماً ، اصبحنا كَعكَةً تُقسَمُ بَينَ العُمومَةِ .. هَنيئاً لنا تَفَرقَنا !.

قُرعَة ..

إِنَّهُ الحَلُ المِثالي ..

لِلتَخلُصِ مِن حُمولَةِ اليُتمِ التي أَورثَهُم اِياها أَخاهُم الذي أَخَذَ مَوطِناً تُرابياً بَينَ القُبورِ ، نَحنُ المَاكِثينَ بَينَ أَشباهِ البُدلاءِ ، لحظاتٍ و سَنَكونُ في منازِلِ أَعمامِنا نُزلاء ..

نَحنُ اللَذينَ أرهَقنا الجَزعُ، و تَمكَن مِنا الحُزنُ ، و سَطا على طُفولَتِنا ، فَما تُراهُ فَاعِلٌ بِنا؟!.

أَخَي الأكبر ، و أنا ، و إثنَينِ مِن اِخواني الصِغار ، و أُختي التي تَكبُرُني سِناً ، و يُتمٌ يُحيطُ بِمَصِيرنا هُنا و هُنا، الكُلُ يَنتَظِرُ مَصيرَهُ مِنا ، الكُلُ يَنتَظِرُ نَصيبَهُ منِهُ ، و لَكأَنَهُم مُكَرَهين ..

و لَكِن لا بَأس أَيَتُها الأيام ..

سِتُ أعمامٍ أمام خَمسَةِ أيتام ..

خَمسَةُ أوراقٍ طَوت أَسمائَهُم ، و كُلُ العُيونِ و القُلوبِ تَنتَظِرُ ما سَيحِلُ بِهم ، إِنَ طُفولَتَنا أَوصلَتنا

إلى شُعورٍ غامِضٍ بَعضَ الشيء ، كَأن تَكونَ حِملاً على غَيرِكَ بِسَببِ ذَنبٍ اِقتَرَفَهُ القَدَرُ معكَ و معَ غَيرِكَ رُبّما مُمَازَحَةً ..

و هل تمزَحُ الأقدارُ ؟.

هَذا ما كُنا ننتَظِرُهُ في نِهايَةِ القُرعَةِ ..

أَتَى أخي الكَبير ، و طُلِبَ مِنهُ أَن يَختارَ قَدَرَهُ عَبرَ وَرقَةٍ كُتِبَ بِها حَظُهُ و مُستَقبَلُهُ و مَصيرَهُ في آنٍ وَاحدٍ ، و بَعدَ أن فَتَحها وَقَعَ إِختيارُهُ على اِسمِ عَمِهِ الأصغَر سِناً والأكثَرُ رُجولَةً ..

و أَتى دَورُ أُختي ، وَقفَتِ المِسكينةُ ، تَتَلاعَبُ مع أوراقٍ سَتَحسِمُ بِها أَمرَ أُنوثَتِها ، هَي المُعلَقَةُ برَحِمٍ مِنَ الحنانِ ، فكُنتُ أرى فيها صُورةُ أُمي ، وهَيبَتها و لِصَمتِها حِكَايَةٌ أُخرى ، فما أقساهُ من يُتمٍ ، و ما أصلَبَهُ مِن حِرمانٍ ، سَحَبَت قَدرَها و عَمُّها الأوسَطُ كان هو ذَلِك القدر.

فَرحتُ لَها و بَكيتُ في آنٍ معاً ..

في وَجهِ عَمِنا الأَوسط فَتيلُ أُبوَةٍ ، فَكَان أَشدَهُم حناناً ، و أكثرَهُم ليناً ، كما أَنَّهُ أَغنَاهُم صِيتاً و مَالاً ..

و جَاءَ دَوري ..

إِنَكَ في هَذِهِ اللّحظَةِ سَتَقَعُ في دوارِ الحَيرَةِ ، أمامَكَ أربَعَةُ أَوراقٍ ، في طياتِها أَربَعَةُ أَسماءٍ ..

فَبينَ التَردُدِ و الإِختيارِ، و بَينَ الإِرتِجافِ و الإِقدامِ.. أسحبُ مَصيري ، و أَلتَقِطُ وَقتي ، لِأَقَع في رِعايَةِ عَمي الأَكبَر ..

كانت مُمَازَحَةُ القَدَرِ لَنا جَميلَةٌ ..

و أجمَلُ من ذلكَ أن لنا أعمامً فِيهم مِنَ الطُهرِ ، ما يَكفي لِسَدِ شَرَهِ يُتمِنا ، أعمَامٌ أَطلقنا عليهم أَلقاباً كُنا بِحَاجَةٍ لَها ، في وَقتٍ فَقدنا فِيهِ كُلَ الحاجاتِ ..

إنتَقَلَت كَلِمَةُ الأُبوَةِ لَهُم ، و الرِعَايَةِ في أَحضانِهم ، في دَقائِقٍ حَدَدَ كُلُ واحدٍ مِنا مَصيرَهُ ، و الكُلُ وَقّعَ على عَريضَةٍ بِحُضورِ مُحَامٍ و راعي الكَنيسَةِ و الجَدَّينِ و الشُهودِ و الأَخوال على ما يلي :

تحمل رِعايَةُ هَؤلاءِ الأطَفالِ إلى الأَعمامِ مُقاسَمَةً على حَسبِ القُرعَةِ ، و يُرَبون في بُيوتِهم و في أكنافِهم ، و يُكمِلونَ تعليمَهُم الإلزامي ، و يُرعَونَ حَقَ رِعايَةٍ ، و تُؤمَنُ حاجياتِهم بِكافَةِ أَنواعِها صِحياً و إجتماعياً و مادياً لا يُظلَمونَ و لا يُضرَبونَ و لا يُهانُون و على ذَلكَ يُوقِعُ الحُضور على هَذِهِ العَريضَةِ ..

إ . ه .

كُلُ وَاحِدٍ منا حَزمَ حَقائِبَ مُستَقبَلِهِ ، حزمنا داخِلَ حَقائِبِنا أَحلامَنا و طُفولَتَنا و ذَاكِرَتَنا ..

و أَشياءٍ مِن رائِحَةِ الأُمومَةِ ، و مَلامِحاً مِن عَبَقِ الأُبوَةِ ، ضَحكاتٍ هُنا و هُنَاك ، زينَةٌ مِن شَجَرَةِ العيدِ ، صُلبانٌ خَشَبيَةٌ قَد نَحتها أبي في مِنجَرَتِهِ آنِفاً..

لَحَظاتٍ و نَفتَرِقُ ، جَلسَنا نُعانِقُ بَعضَنا و كأَنَنا لن نَلتَقي مُجدَداً ، نَبكي بِحُرقَةٍ ، و لا نَعلَمُ ما الذي

يُبكينا ، نُرِيدُ أَن نُشبِعَ ذَلِكَ الطِفلَ فينا ، نُريدُ أَن نُقنِعَهُ بِأنّهُ القَدَرُ تَمكنَ مِنا ، و أَننا سَلّمنا رِقابَنا لَهُ لَيسَ لِطيبِ خَاطرٍ مِنا ، بَل لِأَنَ ضَعفَنا ونُعومَةُ أَحلامِنا لم تُمكِنا مِن إِجتيازِ المَهامِ الكَبيرِةِ ..

لا زِلنا أَطفالاً ، تُبكينا صَرخَةٌ ، و تُسعِدُنا الحلوى ، و ما إِن نَضَجَت أَجفانُنا على بُخارِ البُكَاءِ حتى أُمِرنا أَن نَنقُلَ أَمتِعَتَنا كُلُ واحِدٍ إِلى عَرَبَةِ نَصِيبِهِ أو إِلى حَتفِهِ ..

إِلى أَجسادِنا الضَعِيفَةِ فَرّقتها مَسَافَاتُ يُتمٍ ، و لَكِنّ القُلوبَ لا زال بِينها صِلَةُ قَرابَةٍ ..

نَرمُقُ بَعضَنا بَعضاً على بُعدِ أَمتارٍ مِنَ الأُخوَةِ ، و في حُرقَةِ القَلبِ صَرخاتٌ تُنادِي :

اِنتَظر يا أخي لا أُرِيدُ وَداعَكَ ..

ما أَقساهُ مِن يَومٍ ، و ما أتعَسَها مِن لَحَظاتٍ ..

صعدتُ مَع عَمي في سيارَتِهِ و زَوجَتُهُ الجَميلَةُ بِجانِبِهِ ، و أَولادُهُ في المقعَدِ الخلفي مُستَغرِبينَ مِن مَجيئي مَعَهُم ، فَابتَسَمَت زُوجَة عَمي في وَجهي ..

قَالَت :

أَتمنَى أَن تَدعوني أُمي ..

اِبتَسَمَ عمي وقالَ :

و أنا أَتمنَى أَن تُناديني بِأَبي ..

عِندَهُ مِنَ الأَولادِ اِثنانِ يكبُراني سناً و أُختُهم بِعُمري..

قَالت اِبنَةُ عمي:

أُمي و هَل سَيعِيشُ معنا ؟

قَالت الأمُ الجَميلَةُ :

إِنَّهُ أَخٌ لَكُم بَعدَ اليَومِ ، مِثلَهُ مِثلُكُم ..

نَظَرَ الجميعُ إِليَّ مُبتَسمين ..

أمامَ هَذا المَشهَدِ ، شَعرتُ بِدِفئِهم ، و بِحُسنِ تَربِيَتِهم ، و تَماسُكِهم كعائِلَةٍ واحِدَةٍ ..

قَالَ لَهُم عَمّي و هُو يقودُ سيارَتَهُ :

مُنذُ اليوم ، لا تُنَادُونَهُ إِلا بأَخي ، يَجِبُ عليكُم اِحتِرامَهُ و أَن تُساعِدوهُ في دِراسَتِهِ و أُمورِ حياتِهِ ، أَتمنَى أن تُحسِنوا مُعامَلَتَهُ حَتى نَراهُ رَجُلاً نَاجِحاً في المُجتَمَعِ ..

إِنَّهُ أَمانَةٌ في أَعناقِكُم يا أَبنائِي ..

قامَ الجَميعُ بِمعانقتي بِشِدَةٍ ..

مُرحِبينَ بي بِكُلِ وسائِلِ البَهجَةِ ، و بَدأَ الشِجارُ في غُرفَةِ مَن سأَنامُ ، حَتى تَدّخلَت أُختُهُم و قَالَت هَذَا قَرارُهُ رُبّما سَينامُ عِندي ، ضَحِكَ الجَميعُ لِقَرارِها ..

قَاطعَهُم عَمي قَائِلاً :

سينامُ في غُرفَةٍ خاصَةٍ بِهِ ، كُلُ واحِدٍ مِنكُم في غُرفَةٍ لا تَتَشَاجَروا يا أَبنائي ..

كَانَ عَقلي يَدورُ حَولَ فَلكٍ آخَرٍ ..

هَل سَيحظى اِخواني بِمثلِ هَذا التِرحابِ الذي حَصَلتُ عليه أنا؟.

أتمنَى أَن يَكونوا سُعدَاءَ في هَذِهِ اللّحظَةِ ..

سَعادة !! ..

مَا أجمَلَهُ مِن حُلمٍ ..

سعادة ..

هَل عَرفتَ هَذِهِ المادة؟.

سَعادة تُنَقِبُ عَنها بِكُلِ الوَسائِلِ ..

حَتى ما إن تَمَكَنتَ مِنها حَتى تُعيدُكَ إِلى ما كُنتَ عَلَيهِ مِن بُؤسٍ ..

دَائِماً ما كُنتُ أَعتَقِدُ و لا زِلتُ مُقتَنِعاً بِأَنَ الإِنَسانَ ولِدَ حَزيناً مَغبوناً مِن تَعاسَةِ الحَياةِ ، كَانَ يَتوقَعُ أن يَجِدَها بِغَيرِ مَا كانَ يَحلُمُ بِها ، جائتهُ بِحُزنها و ضَنكِها، و إِن أَحبَبتَ أَن تُلقي نَظرَةً إِلى أَحَدِ المَشاهِدِ التي سَارَ عَليها كُلُ شَخصٍ مِنا ، فَعَليكَ بِأولِ مَشهَدٍ مِن مَشاهِدِ الزَحفِ إِلى الدُنيا ..

تَعالَ مَعي إِلى عَالَمِ الأَرحامِ ..

هُنَاك يَتَمَدَدُ نُموكَ على شَاكِلَةِ مُضغَةٍ مُضَمَخَةٍ بِالدِماءِ ، سَبَبُها تَلاقِي الحُب ، أو رُبّمَا الإِكراه ..

لا أَحَدَ يَعلمُ كَيفَ كَانَ التلاقي ..

هَل كَانَ وَسَطَ المَباهِجِ ، أو عَن طَريقِ قَنَاةِ الخيانَةِ..

وَحَدهُم من كانوا سَبَباً في وجُودِكَ يَعلَمون ..

سَتَقودُهُم الأكَاذِيبُ بِقَصَصٍ سَتَفتَخِرُ بِها ، كَأن يَقولوا لَكَ :

جَمَعنا الحُبَ تَحتَ لِواءِ رابِطِ الزَواجِ ، جَمعتنا القُلوبُ على فِراشٍ يَحلُمُ بِهِ الأُمراءُ ، ضَمَّنا الوَفاءُ الأَعمى أمامَ قَسَمٍ و عَقدٍ لا مَفرَ مِنهُ ، حَتى لا يَنقَطِعَ الوِصَالُ ..

إِنَّهُ الوِصالُ الذي أَوصَـلَكَ إِلى حَافَةِ الأرحامِ ..

وِصَالُ الشَغَفِ و الشَهوَةِ و النَشوَةِ و إِفراغِ ما جَفَ في المُهَجِ على مَصَبِ الأُقحوانِ البَّري ..

أَنتَ نِتَاجُ وِصالٍ ، أَنتَ بِدايَةُ وِصالٍ ، أَنتَ من صُلبِ الوِصالِ ، فَهَنيئاً لَكَ بالوِصالِ يا هَذا ..

مِنَ العَدَمِ و في حَشَى الفَناءِ إِنبَثَقَ نُورُكَ ..

و أَينَعتَ مِن ضَعفِها هي لن تَنسى تِلكَ اللَحَظاتِ القاسيَةِ ، تَضاريسٌ مِنَ الحالاتِ العَرضيَةِ أِجتاحتها و تَحمّلتها ، كالدوارِ و الإِقياءِ و التَعبِ و الإِرهاقِ

و وَجَعٍ لا تُدرِكُ أنتَ سلبياتِهِ ، في الأَشهُرِ الأولى و في عَصرِنا الذي باتَ يَلتَقطُ صورَ الطَبَقي المِحوَري عَبرَ أَجهِزَةِ الإيكو ..

يَلتَقِطُ لَكَ القَدَرُ أولَ صُورَةٍ طَبَقيَةٍ ، بِاللونينِ الأَسوَدِ و الأَبيَضِ ..

يا صَغيري الذي لَمْ تَبدو مَلامِحُكَ و لا جِنسُكَ ، و أنتَ في عِيادَةِ الطَبِيبِ دَعني أَقولُ لَكَ :

إبتَسِم ..

أَنتَ الآنَ في عَالَمِ الأَرحامِ و الدِماءِ ..

لا شَيءَ يَقُضُ مَضجَعكَ سِوى هَذا السَرابِ المُلَوَثِ بِالضَبابِ ، إبتَسم لِآلَةِ التَصويرِ ، إبتَسم لِطَبيبٍ سَيُبَشِرُ بِوجودِكَ و صِحَتِكَ ، إبتَسم لِمَن سَيُبَشِرُ بِمَجيئِكَ ..

هَل أنتَ سَعيدٌ يا حَبيبي ..

لا .. لا .. لا ..

لا تَنطِقُ الآنَ ،إنكَ لَم ترى السَعادَةَ بَعد ..

هُنَاكَ شَوطٌ كَبيرٌ مِنَ الدِفئ حَتى تَكتَمِلَ كُسوَةُ عِظَامِكَ لحماً وجِلدَاً.

آلافٌ مؤَلَفَةٌ مِنَ الخَلايا التي سَتنتَزِعُها مِن ضَعفِ تِلكَ المِسكينَةِ ، حَتى تُؤسِسُ بِها وجُودَكَ و جَسَدِكَ الهَزيلِ ..

نَعَم الهَزِيل ..

هَل شَعرتَ بِحَجمِ ضَعفِكَ !؟

إَنَّها التَقديراتُ الغَير مَوجُودَةٌ لوجُودِكَ و كَينونَتِكَ على كُوكَبٍ عَائِمٍ بِلُطفِ الرَبِّ ..

لَيسَ مِنَ السَهلِ أَن تَعلَقَ شَوكَةٌ في مَعِدَتِكَ ، سَتُبَادِرُ فَوراً إِلى الأَطباءِ بِإقتِلاعِها بِأَيَةِ طَرِيقَةٍ كَانت ، لِأَنَكَ تَشعُر بِأَنَّها مَصدَرَ تَهديدٍ لِصِحَـتِكَ و إِستِقرارِكَ ..

بِأَولِ مَوعِدٍ لِإجراءِ اِستِئصالَ تِلكَ الشَوكَةِ سَتَعلَمُ بِأَنّكَ تَخلصتَ مِن شَبَحٍ صَغيرٍ يُهَدِدُ حَياتَكَ ..

على العكسِ تَماماً ..

وَحدَهُم الأُمهاتُ بِكُلِ وسَائِلِ الضَعفِ و القوةِ مَن يَبتَهِجنَ بِذَاكَ الألَمِ ، مُتمَسِكاتٍ بِالأَلَمِ و الأَمَل في آنٍ وَاحِدٍ ..

إنّها سَعادَةُ الأَلَمِ ، بِعكسِ أَلَمِ السَعادَةِ تَماماً ..

ضَعفُكَ الذي لا تَعلَمُ أَينَ سَيَسيرُ بِكَ لا تَعلم إلى أَينَ سَيَقودُكَ ، و ما المَسعى الذي سَيُلقي بِكَ ، لا أنتَ و لا مَن يُعاني لِأجلِكَ يَعلَمُ ما الذي سيَأتي مِن مَحاسِنٍ أو مَفاسِدٍ ..

رُبّما سَتَكونُ مَصدَرَ سَعادَةٍ لِهؤلاءِ الأَبوَينِ ، بِبِرِكَ لَهم و حُسنِ تَصَرُفِكَ أَو نَجاحِكَ أو صِحَـتِكَ .. رُبّما ستُفرِغُ عَلَيهم مِنَ التَعاسَةِ و البُؤسِ ما دُمتَ حَياً ، بِعُقوقِكَ و سُوءِ تَصرُفِكَ أو لعلَّها مَرَضيَةً مُزمِنَةً ألمت بِكَ ..

مَن أنتَ ؟! .. و مَن تَكون ؟

وَحدَها الأَقدارُ أَعلَمُ بِما سَيَحِلُ بِكَ و بِغَيرِكَ ..

هُنَاكَ لحَظاتٍ تُفقِدوني السَيطَرة على زِمامِ أَفكاري ، كأن أَستَخلِصَ مِن عَدَمِ وَعي الإنسانِ و غيابِ عَقلِهِ نِعمَةٌ لا تُعدُ و لا تُحصى ..

في بَعَضِ الأَحيانِ أَغبَطَهُم ، و لا أَحسِدُهُم ..

أولَئِكَ المَجانينِ اللَذينَ يَجُوبُونَ الشَوارِعَ بِأَجسادٍ خالِيَةٍ مِنَ العَقلانيَةِ و إدراكِ ما يَحصُلُ حَولَهُم ..

هَنيئاً لِمَن أَنجَبَهُم ..

و تَركَهُم يَقطَعونَ مَسَافَةً مِن عَدَمِ مُحَاسَبَةِ أَنفُسِهم و عَدَمِ الشُعورِ بِغَيرِهم أو بِأَنفُسِهم ..

أَطلقنا عَلَيهم مُصطَلَحاً هُو أَقرَبُ لِمَن يَملِكُ عَقلاً ، فَعلى مِنَّصَةِ الوَرَقِ ، و مِن شُرفَةِ الحِبرِ دَعني أُلقي عَلَيهم خُطَباً جُنونيةً تَليقُ بِتعاسَتِهم :

سَادَتي آنِساتِي المَجانيين في كُلِ العَالَمِ ..

دَعونا مِن مُصطَلَحَاتِ العُقلاءِ القَذِرَةِ ، هُم مَن يُجَمِلونَ القَبيحَ و يَستَقذِرونَ الفَصيحَ في عَالَمٍ مُلوَثٍ بِالأَقنِعَةِ و الأَكاذِيبِ و النِفاقِ ، فَالصالِحُ في نَظَرِهم

فَاسِدٌ ، و الفَاسِدُ هُو شَريفٌ ، و الَشريفُ لِصٌ ، و اللِصُ مَسؤولٌ ، و المَسؤولُ طَاغيَةٌ ، و الطَاغِيَةُ قِديسٌ ..

حَلَقَةٌ مِنَ الفَسادِ تَدورُ حَولَ بَعضِها البَعضِ ، مَبنيَةٌ على الأَوهامِ و الإنغِماسِ المَفقودِ ، و إهمالِ المَوجودِ ، أَنتُم مَن عَقِلَ مَدَارِكَ هَذا الكُونِ بَعدَمِ وَعيهِ و مَنطِقِ اللا مُبالاةِ و حُجَةِ الإستِهتارِ بِمَبادِئ ما يُسمَى قَوانينَ الكُونِ التي شَرّعناها على حَسَبِ جُيوبِنا و أَهوائِنا و عَقائِدِنا و مَنطِقِنا الزائِفِ ..

شَهوَتُكُم مَعلومَةٌ لِلقاصي و الداني ..

و شَهوَتُنا مُلوَثَةٌ و ضَبابيَةٌ و إدِعائيَةٌ و عَدائِيَةٌ ..

مُحكَمَةٌ بِخزائِنِنا و بُطونِنا و فُروجِنا و أَسِّرَتِنا ..

جابوا الشَوارِعَ و الأَزِقَةِ ، و علَّموا قُساةَ العُقولِ و القُلوبِ ما مَعنى أَن تَكونَ مَجنوناً ، ما مَعنى أَن تَكونَ إنساناً ..

سَعَادة ..

لَيسَت سَعادَةَ فُلانٍ الفُلاني ..

التَقديسُ اللا مَنطِقي لِلإنسانِ على كَوكَبِ الأَوهامِ ..

إنَّ المَشهَدَ الذي لَمْ أُكمِلهُ هو ما مَعنى أَن تَبحَثَ عَنِ السَعادَةِ و أَنتَ مُنذُ البِدايَةِ قَد أَتَيتَ حَزيناً بِوَجَعكَ و بُؤسِكَ و دِماءِ تِلكَ المَسكينة ..

و كُنتُ و لا زِلتُ أَعتَقِدُ بِأنَّ رُؤيَةَ الدِماءِ جِنايَةً عُظمَى ، رُبّما يَقَعُ الإِنسانُ فيها ضَحيَةً في أَمرٍ ما ، أو يُقِعُ بِها نَفسَهُ عَن طِيبِ خَاطَرٍ، كَأن يَقتُل نَفسَهُ أو يَقتُلَ غَيرَهُ ..

و ما الذي صَنعَهُ على فِعلِ ذَلِكَ غَيرَ الملذاتِ و الحَسَدِ يا هَذا ..

لا يُوجَدُ دِماءٌ مُتَدَفِقَةٌ على هَذا الكَونِ تَشَي بالفَرَحِ كَدِماءِ خُروجِكَ مِن رَحِمِ أُمِكَ ..

هَذِهِ الدِماءُ الطَاهِرَةُ التي تُقَدَسُ و يُتبارَكُ المَرءُ بِها..

و هُنَاكَ دِماءٌ إِبتَدعنَاها ظَناً مِنا أَنَّها بِدَايَةٌ جَديدَةٌ لِلحَياةِ و مَرحَلَةٌ مِنَ الطُهرِ و العِفّةِ و الإِلتِزامِ بِالشَرائِعِ التي يُخالِفُ أغلَبُها النَظَرياتِ العِلميَةِ و الطِبيَةِ مَثَلاً :

خِتانُ الذُكُورِ و خِتانُ الإِناثِ و تَدَفُقِ الدِماءِ بَعدَها .. و حَتى تَكتَمِلَ كِذبَةُ مَن شَرّعوا خِتانِ الذُكورِ مِنَ اليَهودِ و المُسلِمين و بَعضِ الطَوائِفِ المَسيحيَةِ ..

اِبتَدَعَ عُلماؤُهُم بِأفكَارِهم المَحشُوَةِ عَقائِدَ بَاطِلَةً دِراساتٍ كَاذِبَةٍ و مُلفَقَةٍ لا تَصُبُ في وَاحَةِ المَنطِقِ و لا في مَجرياتِ العَقلِ :

تَقولُ دِراسَتُهم التي اِستنبَطوا نَظَرياتِهم مِنْ عَقائِدِهم بِأنَ أَهميَةَ الخِتانِ تُقَلِلُ مِن خَطَرِ الإِصَابَةِ بِالإيدز ، كَما أَنَهُم أرسلوا بِبُحوثِهم إِلى مُنظَمَةِ الصِحَةِ العالميَةِ التي يَنتَمي إِليها جُلُ هَؤلاءِ المدعُوونَ لِلعَالَمِ ..

حَيثُ قَرّرَت مُنَظَمَةُ الصِحَّةِ العالميَةِ في مارس 2007 الخِتانَ رَسمياً كَوَسيلَةٍ لِلوِقايَةِ مِن أمَراضِ الإيدز ، كَما طَالبَ خُبراءٌ أو لعلَهُم جُهَلاءٌ مِن جَنوبِ إفريقيا في شَهرِ حزيران 2007 بِإعدادِ بِرنامَج لِلخِتَانِ الجَماعي

و أكَاذِيبٌ على العُقولِ و مَرضَى القُلوبِ لتَجييشِ هَذا العَالَمِ طَائِفياً ..

مُتناسينَ بِأَنَّ الإنسانيَةَ التي لا يَدينُ بِها إلى القَلِيلِ ..

أُريدُ أَن أَعرِفَ :

كَيفَ يُولَدُ الإنسانُ سَليماً و مُعافى ثُمَّ يُقتَلَعُ مِنهُ جُزءٌ مِن جَسَدِهِ بِحُجَجٍ واهيَةٍ يُنكِرُها المَنطِقُ و العَقلُ !!

إلى أَربابِ العُقولِ أسألُ سؤالي ..

سعادة ..

و لِأنَكَ مُكوَنٌ مِن خَليطٍ مِنَ الحُزنِ المُضرمِ ..

سَتشعُرُ بِالنَقصِ ، و تَبحَثُ عن فيتامينٍ يُرمِمُ زَلازِلَ حُزنِكَ ، فَما أَتعَسَها مِن مَرحَلَةٍ ..

و الإِنسانُ بِطَبعِهِ مُتَفاوتٌ بِالبؤسِ ..

لَيسَ كُلُ بَني البَشَرِ على حَافَةٍ واحِدَةٍ مِنَ الجَزَعِ ..

أنتَ و نَقصُكَ بِالضَبط ..

تُرِيدُ أن تَبحَثَ عَنِ الفيتامين الذي يُصلِحُ قِواكَ و يُعيدُ الحَيويَةَ إِلى مَجرى دَورتِكَ التي تُفرِزُ بُؤساً بَعدَ بُؤسٍ ..

أربَعَةُ أَشياءٍ نُطلِقُ عليها سَعَادة :

الحُبُ ، و الأبناءُ ، و الصِحَةُ ، و المالُ ..

الحُبُ حَالَةٌ لا إِرادية يَرتَطِمُ بِها المَرءُ في لَحظَةِ تَورُطٍ و إِعجابٍ و عَدَمِ إِدراكٍ ، فَالحُبُ هُو بِدايَةٌ مَصيرِيَةٌ أو لعلها اِستِقراريَةٌ لِطرَفٍ أو طَرفَينِ لِسَدِ

شَرَهِ البؤسِ و جَلبِ ذَلِكَ المَحلولِ الضَائِعِ الذي يُعرَفُ بِالسَعادَةِ ..

و الحُبُ يا سادة فِيهِ مِنَ المَضَارِ ما يَقتُلُ صاحِبَهُ أو ما يَطمِسُ وجودَ مَن أَحبَ ، فإِستِخدامُ الحُبِ بِطَريقَةٍ لا عقلانيَةٍ و يُغَيَبُ فِيها المَنطِقُ يُفسِدُ قَلبَ الحَبيبِ و يجلِبُ التعاسَةَ لِلمُحِبِ ، و الحُبُ في مَنطِقِ أهلِ الهَوى بِحاجَةٍ لِلحِكمَةِ و الحِنكَةِ و الرِعايَةِ و الإِبتِعادِ عن مَن يَنصِبونَ لِلطَرَفَينِ شِباكَ العَداءِ ..

فَكم مِن مُحِبٍ فارقنا !

و كم من حَبيبٍ عَذبنا !

و الأَحمَقُ من اِبتَعَدَ عنِ الحِكمَةِ في الإِمسَاكِ بِمِقبَضِ الحُبِ ، و الفَائِزُ مَن اِستَخدَمَ الحِنكَةَ و الصَبرَ في التَصَدي لِأمواجِ الحُبِ و تَقلُباتِهِ المَناخيَةِ المُشبَعَةِ بِالعاطِفَةِ ..

أذكُرُ بِأَنها أحبَتني تِلكَ التي يَصعُب على القَلَمِ كِتَابَةُ اِسمِها في المَرحَلَةِ الجامِعيَةِ في السَنَةِ الرابِعَةِ في جَامِعَةِ بَيروت ..

هُوَ الحُبُ وَحدَهُ مَن جَمعنا على مائِدَةِ بَرِيقهِ ..

كَانَ الحُبُ بَريئاً كَثَعلَبٍ بَّريٍ في قِصَةِ ذاتِ الوِشاحِ الأَحمَرِ ، يَضَعُنا على كُرسيينٍ و فَاصِلِ عِشقٍ لَهُ اِسمٌ آخرٌ يُدعَى الكِبرياء ..

مُتَواجِهينِ على ناصيَةِ الصَمتِ ، كِلانا يَنتَظِرُ التَلَفُظَ بِما يَبوحُ العُشّاقُ بِهِ في خَلواتِهم ، و لَكِنَّ خَلوتَنا كَانَت جامِعَةً ، و إنفِرادُنَا كَانَ صَمتاً ، و في العُيونِ أَحاديثٌ لَها نُعومَةُ الحَريرِ ، و في القُلوبِ ثَرثَرَةُ أسرارٍ لَمْ تَنضُج بَعد ، أربَعُ سَنواتٍ مِنَ المُكَابَرَةِ و نَحنُ نحتَرِقُ في أَتونِ الصَمتِ

كِلانَا اختارَ الصمتَ حِزباً أو رُبّمَا حَرباً ..

نُبارِزُ اللَحَظَاتِ الخالِيَةِ مِن فُضولِ البَشَرِ بِالهُدوءِ ..

شَيءٌ في الأَحشاءِ يَنعَرُ العَواطِفَ بِرِماحِهِ ، و يُشعِلُ حَرباً بَين التَقدُمِ و التَراجُعِ ..

حَتى حَلَّ الغِيابُ ..

أَينَ هِي يا تُرى !؟

لَمْ تَعُد تأتي إِلى الجامِعَةِ ، هَذا الأسبوع الثاني ، تَتَطفَلتُ على رَابِطٍ يَجمَعُنا ، زَميلَةٍ لنا ، تَعرِفُني و تَعرِفُها ، تَشعُرُ بِنا و نُلاحِظُ تَجَسُسها على مَشاعِرِنا ، هُنا لا بُدَ مِنَ التَقدُمِ ..

ـ صَباح الخير ريتا !! ..

ـ صَباح الخير نيكولا !! ..

ـ بدي اسألك سؤال ، جانيت صرلها اسبوعين ما أجت على الجامعة, مُمكن تتصلي عليها و تشوفي شُو بِها !! ..

ـ أي من عيوني ..

أخَرجَت رِيتَا هَاتِفَها المَحمول ، أرقامٌ لا أَعرِفُها, أرقَامٌ تَطلبُهَا رِيتا على عَجَلٍ ، أُراقِبُها أنا بِلهَفةِ مَن فَقَدَ سَعادَتَهُ ..

و عَليكَ أَن تَفقهَ ما مَعنى أَن تَفقِدَ سَعادَتَكَ ..

ها هي، تَطلُبُ صَوتَها ، و أنا أطلُبُ أَن أعودَ إِلى الحَياةِ مَرَةً أُخرى ..

ـ ألو ..

ثَلاثَةُ أَحرُفٍ ..

و تُعِيدُ لَكَ ذَلِكَ النَقصَ ..

الذي نُطلِقُ عليهِ فيتامين السَعادَةِ ..

و إِن قَالَت أنا بِخيرٍ فَـذاكَ المُرادُ و المُنى ..

ـ ألو .. مين معي !! ..

ـ أنَا ريتا صَديقة جانيت بِالجامعة ، فيني إحكي مع جانيت !! ..

ـ أنا أمها لجانيت ، و جانيت صارلها أسبوع بالمشفى ، للأسف حبيبتي ريتا بنتي معها سَرطان بالدم .. لِلَحظَةٍ تَوقَفَ المدى أمَامَ الأَلَمِ ..

هُنا و بَعدَ أَن فَقَدتُ كُلَ ما تَملِكُ ، كُلَ من كُنتَ تَتَمنَى أن تَقضي حَياتَكَ مَعهُم ، قَد قَضوا على سَعادَتِكَ بِرَحيلِهم المُبَكِرِ ، و لكأنَ الحَياةَ تَقولُ لَكَ : لا تَتَعلق بِمَن تُحِبُ كَثيراً ، فَالموتُ على موعدٍ مَعَهُم ، أَليسَ الموتُ بِقَرِيبٍ..

و أَنتَ بِهذا العُمرِ مِنَ الفَراغِ ..
و بَعدَ أَن قَطَعتَ شَوطاً مِن غيابِهم ..
و أَنتَ في خَلوَةٍ دَائِمَةٍ و مُقابِلَةٍ لِلذاتِ ..
ثَلاثُونَ عامَاً و أنا خَاوٍ مِنَ الكَلِماتِ التي تَنتَظِرُني تَحتَ شَجَرَةِ الأَرزِ في جَنوبِنا العَتيقِ ، و أنا لا زِلتُ أَحُثُ السَيرَ مُسرِعاً بأَمتِعَةٍ ليسَت أَمتِعَتي ، أَحمِلُ في قَبضَةِ حَبوي إِلى المَجهولِ أَوراقٌ خَالِيةٌ مِن ضَحِكاتِهم و أَحاديثِهم و سَمَرِهم و سَهَرِهم ..
كُلُ فَراغِ الكَونِ يَندُبُ في لَحظَةِ أَلَمٍ ..
يُشعِرُكَ بِعَدَمِ وجُودِ كِذبَةٍ تُدعى أَمَل ..
إِنَّ الأَملَ بإعتِقادِكَ بِأَن تَرى الغائِبَ و تَحتَضِنُهُ و تُكمِلَ ما تَبقى مِنَ العُمرِ مَعَهُ ..
و أنتَ تُمسِكُ بِيدَيكَ حَفنَة تُرابٍ ..
سَتَعلَمُ بِأَنَّ الأَمَلَ الوَحيدَ هُوَ أَن تَحزِمَ حَقائِبَ حَياتِكَ و تَدعو الرَبَّ أَن يَجمَعَكَ بِهم في عَالَمِ التُرابِ ..
في لَحَظَةِ فِراغٍ ..

سَتَتَكالَبُ عَليكَ أَشباحُهُم مِن كُلِ حَدبٍ و صَوبٍ يَأتوكَ لِكَي يُسعِدوكَ و لكِّنَ البُكاءَ أسهل في حَالِ تُخَيُلِهم ..

جانيت ..

آخِرُ من فَقَدتُ ..

كَانَ الأملُ أكبَرُ مِن أَن أفقِدَها ..

و لَكِّنَ الحَياةَ أثبَتَت لي بِأَنَّ الأمَلَ كِذبَةٌ نَحنُ صَنعناها ، و حَتى لا أكذِبَ على الحَياةِ ولا على الوَرقِ و الحِبرِ ، أَوصلَتني الحَياةُ إلى هَذا الثَلاثينِ بِلا رَغبَةٍ بأَي شيءٍ ..

لي اسمي ، مِهنَتي ، ديني ، أفكاري ، صَمتي ..

المُهندس : فَلان الفُلاني ..

شَخصٌ فَارِغٌ مِن كُلِ مُقوِماتِ السَعادَةِ ..

كَالأَهلِ ، و الحُبِ و الأَبناءِ ..

فأما المال ، يُعَدُ هَذَا العُنصُرُ الذي يَعبُدُهُ النَاسُ حَقَ عِبادَتِهِ ، الشَيءُ المُهِمُ في الحياةِ ، لِدَرَجَةِ أَن تَبيعَ أعز مَا تَملُك لِلحُصولِ عَلَيهِ ..

أما في مَنطِقي ..

لا فَائِدَةَ لِلمالِ إن فَقدَتَ أعزَ ما تَملك ..

ما الذي سَتفعَلُ بِهِ !! ..

لِتفعلَ ما تَشاء ..

إنَّ الضَربَةَ القاضيَةَ التي شَلّت حَرَكَةَ سَعادَتي هي مَوتُ جانيت بَعدَ إصابَتِها بِمَرَضِ السَرطان بِسَنةٍ واحِدَةٍ ، و ما فَائدَةُ أَن تَقولَ لَها :

أُحِبُكِ ! ..

بَعدَ أن تَمكَنَ المُوتُ من شَراييِنِها ، و إنفَلَتَت يَداها مِن حَبلِ الحياةِ ؟

القَضيَةُ لَيسَت في الحُبِ و لا في مَداخِلِهِ و لا في مَخارِجِهِ ، إنَّ العِلَةَ فينا نَحنُ أَهلُ الهَوى ..

لَمْ نَعتَد على الجُلوسِ خَلفَ مِقبَضِ الحُبِ ، و لا كَيفَ نُدخِلُ مِفتاحَ العِشقِ في مَوارِبِهِ ، و لا حَتى كَيفَ نُحكِمُ حِزامَ الأَمانِ على قُلوبِنا ..

نُحِبُ السُرعَةَ في كُلِ شَيءٍ ..

الحُبُ..

العِشقُ ..

اللَهفَةُ ..

الشَغَفُ ..

و أغلَبُ الأَحيانِ نُصَابُ بِحَادِثٍ عَاطِفي بِسَبَبِ سُرعَتِنا على طَرِيقِ الحُبِ ، و لِأَنَ العَمى قد تَغشَى أَفئِدَتنا فَلا قَانوناً يوقِفنا و لا إِشارَةُ مُرورٍ عِشقيَةٍ تُهَدِءُ من سَيرِنا ..

حَوادثُ كَثِيرَةٌ أَودَت بِحياةِ كَثيرٍ مِنَ الشُبانِ و الفتَياتِ ، بَسبَبِ الطَيش الغَيرِ عَقلانِي ..

في هَذا الليلِ الفَارِغِ يا صديقي ..

أُرِيدُ أَن أقِفُ دَقيقَةَ صَمتٍ لِلفَراغِ ..

أُشعِلُ لَهُ سَجائِري حِفاظاً على رُوحي ، و أُشَيعُ لَهُ ما غَنّتهُ سَيدَةُ المقامِ الروحاني ، مولاتي فَيروز :

ـ لا تندهي ما في حدا ..

ـ ما في حدا .. لا تندهي .. ما في حدا ..

ـ عَتم وطَريق .. و طَير طَاير عَا الهَدا ..

ـ بَا بُنْ مسكَر .. و العشب غَطى الدَرج ..

ـ شُو قُولكُن .. شُو قَولكُن ..

ـ صَاروا صَدى .. و مَا في حَدا ..

ـ مع مِين بِدك تِرجَعي بِعتم الطَرِيق ..

ـ لا شَاعلة نَارُن و لا عِندِك رفِيق ..

ـ يا رَيت ضَوينا القنديل العتيق ..

ـ بِالقنطَرة .. يمكِن حَدا كَان اهتدَى ..

ـ و مَا في حَدا ..

ـ يا قَلب آخرتَا معك تَعبتنِي ..

ـ شُو بَآك ! ..

ـ دَخلك صرت هَيك .. و شو بني ..

- يا ريتني سَجرة على مطل الدِني ..

- و جيرانها غير السَما و المَدى ..

- و مَا في حَدا ..

أتمَمتُ رِوايَةَ

فَراغُ

في بَلَدِ الحُرِّيَةِ و الدِيمُقراطيَةِ : النِمسا ، في عَاصِمَةِ البيانو و الكَمَنجة : فيينا ،

في مَنزلي الأَخضر في الحيّ السابع .

الساعة : 00 : 03 ..

من بَعدِ نُضُوجِ الفَراغِ على جَمرِ قلوبِنا .

مِن تاريخ : 8 / 9 / 2017 .